

مرورة سمير

# عمى أبيغين

رواية



دار دؤن

عمى أبيض

مرورة سمير: عمى أبيض، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ١٥٤١١ / ٢٠٢٣ - الترقيم الدولي: 4 - 371 - 806 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر  
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة  
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب  
لا تعبر عن رؤية الناشر بالضرورة  
وإنما تعبر عن رؤية الكاتب.

© دار دَوْن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

مروة سمير

عمى أبيض

رواية

دُون



لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

أحياناً تختار ألا تُبصر..

تلك اللحظة التي تمتزج فيها عيناك مع شعاع الشمس؛ يأسرك ضوءها وسطوعها، فيغمرك العمى الأبيض..

في قمة افتتانك واقترابك تهتز الرؤية ويزوغ البصر!  
حينها تدرك أن ترك المسافات، وإفلات قلبك، هو ما يمنحك البصيرة.

ليلي

من المخيف أن يتسبب حدث واحد في هدم بنائك الهش، والأسوأ أن يكون هذا البناء هو حياتك.  
«أتريدين شيئاً آخر؟»

سألتني مساعدتي أملاً في إطلاق سراحها، فتخيلتُ ما كان ليحدث لو أن أفكارنا مرئية للجميع  
خلف ملامحنا الساكنة.

أجبتُ بود:

- شكراً، يمكنك الانصراف.

وأعطيت لفريق العمل بعض التعليمات والتوصيات المهمة وغادرت.

قَدْتُ سيارتي للمنزل في شرود، والأحداث الأخيرة تعيد كل الماضي إلى ذهني، أخذت أبحث  
عن منبع الخطأ الرئيسي، وكأننا نملك خريطة مسبقة لكل حدث في حياتنا، وعلينا فقط إيجاد  
المسار الصحيح لنفهم كيف بدأ وأين سينتهي.

انعكس المسار في ذهني فجأة عندما رأيت مجموعة من الفتيات يضحكن حول طاولة في أحد  
الكافيهات، تأملتُهن وأنا أتوقف في الإشارة، وألم قديم يعاودني، حتى تحركتُ مجدداً بسيارتي.

«عدتِ باكراً اليوم، هل حدث شيء؟»

استقبلتني أمي بقلق، فلم أرد، دلفت للصالة بصمت تتخللني برودة المكيف ورائحة المعطر  
الصناعي بنكهة الفانيليا، كل شيء جميل ومرتب كما أحب، كل شيء ساكن جداً كملامح وجه لا  
تُظهر شيئاً.

- ليلي! ردي علي!

أجلت ردي عليها لأجيب رنين الهاتف المتصاعد، فانتظرت أمي بصبر، كانت مكالمة ثقيلة  
مُرهقة.

- حاضر.. تمام، أفهم ما تقولينه حضرتك لكنها مجرد طفلة؛ لا يمكن أن تكون تعمدت ذلك.. آ..  
نعم أعرف مقدار الضرر الذي أصاب الفتاة وحزينة جداً، نعم للأسف لم يقبل والداها التصالح.. آ..  
حاضر.

أغلقت المكالمة وأصابعي مستمرة في فرك جبيني في حيرةٍ وشرود.

- مديرة المدرسة مرة أخرى؟ يا للمصيبة! سيقولون على ابنتك مجرمة! مستقبلها ضاع!

- سوزي من فضلك، سلمى ستسمعك!

- ليته تسمع لعلها تحس وتعرف المصيبة التي وضعتنا فيها!

بحثت بعيني عن ابنتي في الصالة الواسعة، وأراحني أنها لا تزال في غرفتها، رغم علمي بأن  
جدتها لن تتوانى عن تكرار هذا الكلام أمامها في أقرب وقت، لكن سلمى لا تُظهر ما تفكر فيه ولا

تحدث كثيرًا مؤخرًا، لقد تكوّن حاجز بيننا في العامين الأخيرين، وحاولت تجاوزه بالطريقة الوحيدة التي أملكها.

«لولو.. أعددت لك الجاتوه الذي تحببته.»

ذهبتُ لغرفتها في المساء بعدما تأكدتُ أن سوزي لم تنتبه لتهريبي الحلوى لها.  
- شكرًا.

غمغمتُ سلمى بابتسامة غير مكتملة، فأتممتها بنصف ابتسامة مماثلة، أيمن أن يكون كل ما حدث خلال الأسبوع الأخير مجرد كابوس سيختفي برمشة عين؟ رمشت ولم يتغير شيء، فغادرتُ بصمت، لتفاجئني سوزي في الممر وهي تهز رأسها بتهكم ونفاد صبر قبل أن تقول:  
- يجب أن نذهب للمدرسة.. سأقابل المديرية بنفسى.

-أنتِ؟!!

سألتُ باستنكار لم أتحمك به، لتضع يديها على خصرها بميوعة لا تليق بسنها وتقول:  
- ألا أليق بسعادتك؟

- لم أفصد.

تمتت بخفوت وأنا أشيح بنظري، كيف ظننت أنني سأنسى ماضي سوزي وهي نفسها لم تنس، ولا تريد النسيان، حتى بعد أن انحسرت عنها الأضواء، وتجاوزت الستين من عمرها.  
وتابعتُ:

- لكن جدّيها حاولا من قبل ولم يتغير شيء، رغم أن جدها طبيب مشهور وله مكانته.  
أشعلت سوزي سيجارة وقالت بجدية وهي تقف أمام غرفتها:

- وأبوها لم يذهب طبعًا! لا يهم، في التاسعة صباحًا سنكون في المدرسة، لي طرق أخرى، أخبرني بنتك ونبهيها كي تحاول التظاهر بالأدب! ولو اضطررنا للتذلل للمدرسة وأهل الفتاة سنفعل! إنه شروع في قتل! فهمت؟!!

صدمتني الجملة، «شروع في قتل!» لماذا تُضخّم الموضوع لهذا الحد؟! أتريد أن تثبت أنني لستُ أمًّا أفضل مما كانت هي عليه؟

أعرف أنني أخطأت مع سلمى في بعض الأمور.. عندما ارتبكت حياتي أربكتها معي، لكنني أمٌ جيدة بالتأكيد.

تركتها ودخلت غرفتي.. سوزي كل مرة.. في كل مشكلة!

أعرف ما سيحدث عندما أخبر سلمى بأن تستعد للغد، ستسخر من اهتمام جدتها ومن جدتها نفسها، لا تصدق أنها تحبها وتهتم بها، بالرغم من قسوتها معها في تنظيم أكلها، وحثها المستمر لها على إنقاص وزنها. ربما أنا أيضًا لا أصدقها، كثيرًا ما أشعر وكأنها تمثل أحد أدوارها السيئة، لكنني لا أعارضها، بعدما لم يعد أمامي باب مفتوح غير بابها، لا أعارضها كثيرًا، لعلها هي

المحقة في النهاية بعد كل ما حدث، وعدتُ أقول كلمتي السحرية التي تريح الجميع: حاضر.  
أعرف التأثير السحري لكلمة «حاضر»، ينقذني سحرها في أي مأزق، فهل انقلب السحر على  
الساحر الآن؟ أم إن الساحر من البداية مزيف، ضعيف، لا سحر له؟  
أفلتت مني تنهيدة شقتُ روعي، وألقيت بجسدي على السرير، بعدما ظننت أخيراً أنني نجحت  
في اختيار بداية جديدة، تخلصت من كل الماضي، بكل براءته وآثامه، أنت مشكلة سلمى، بل كارثة  
سلمى لتهدم كل شيء!

هل تعمدتُ إيذاء زميلتها في المدرسة؟ تعمدتُ إغراقها في حمام السباحة كما يقول المدرسون؟  
هل لسبب ما.. فكرتُ في... قتلها؟!

لا غير معقول.. سلمى طفلة! مجرد طفلة في الثانية عشرة، ولا يمكن للأطفال التفكير في القتل!  
لكنها ليست المرة الأولى التي تتسبب في إيذاء أحدهم، العام الأخير فقط تنوعت الإصابات ما  
بين كسر ذراع فتاة أو كسر سِنٍ أخرى، نتيجة دفعة قوية من سلمى بجسدها الممتلئ لفتاة من  
فصلها، وبعد الكثير من الاعتذارات والفصل أحياناً لمدة أسبوع يعود كل شيء كما كان، لكن هذه  
المرة مختلفة، البعض يؤكد أن هناك تخطيطاً في الأمر، فهل يمكن؟ لا.. غير معقول!  
احتضنتُ وسادتي أذفن وجهي، وكأني عدت تلك الصغيرة الوحيدة، التي تبتعد عن كل ضوء  
يُعري ضعفها، لكنني لم أختفِ كما تمنيت، بل بقيت كتلة جسدي ملتصقة بالفراش، وذرات روعي  
تحترق.

كم أشبهك يا سلمى ولا تعرفين!

أين أخطأتُ في تربيتك؟!

فقد حرصتُ أن أجنبها كل ما تعرضتُ له، وأمنحتها كل ما حُرمتُ منه، لتكون الشخص الذي لم  
أستطع أن أكونه..

فهل كان هذا خاطئاً أيضاً يا صغيرتي؟!

مددت يدي بتردد أفتح الدرج المجاور لسريري، ومن تحت دفتر ثقيل سحبتُ رزمة أوراق  
مطوية، مكتوبة بخط اليد، وبوجل فتحت واحدة منهم لأقرأها للمرة الألف.

دفعتُ الأوراق لمكانها بسرعة والدموع تغشى عيني، انكشيت في وسادتي، تغمرني أشباح  
حررتها للتو، ويعود الهمس ليرن كالأنين في رأسي..

«ليلي.. ليلي! أكاد أجنُّ بك يا ليلي!»

تطل الذكرى من خلف طبقات كثيفة من التناسي والإنكار، وتحرر همساً يلتصق برأسي..  
بجلدي!

همس كان البداية لانتهيار كل شيء!

إنه ذنبي! كل هذا ذنبي!

فهل يمكننا أبداً العودة للوراء لنختار كل شيء من جديد؟

\* \* \*

في طفولتي عشتُ مع جدتي وعمتي في المنزل الكبير ليعتنيا بي بعد أن طلق أبي سوزي، وما لبث أن تزوج مجدداً وكونَ أسرة جديدة لا مكان لي فيها.

أخبرتني جدتي أن سوزي كانت فتاة إعلانات جميلة تعرّف عليها أبي في إحدى الحفلات، ووقع في غرامها وتزوجا بسرعة، لكن إصرارها على العمل في مجال التمثيل أدى إلى طلاق نهائي، قرار لم يندم عليه أبي خاصة بعدما رأى نوع الفن الذي احترفته، وحصرها في أدوار الإغراء والمرأة اللعوب دون موهبة حقيقية، مجرد وجه جميل وجسد مثير يجذب الجمهور، بجانب الأغاني الجريئة والمثيرة للجدل التي تُصوّرُها من حين لآخر، ليكتمل غضب أسرة أبي العريقة منها، ويتسرب إليّ إحساسهم بالعار على مدار السنين.

فإذا قسّم كل منا حياته لفصول مُعنونة؛ سيكون العار هو الإحساس الأول.. الاسم الأول لفصول قصتي.

هل فكر أحدكم في طعم العار؟ ملمسه.. لونه؟

أنا فكرت... للعار ملمس لزج، كغيمة كثيفة حطّت فوق رأسك فجأة، ويجب أن تبدأ برأسك؛ تضرب حواسك، تأخذ بصرك، وتتل من كرامتك، حتى تغمرك بالكامل في لزوجتها، فترى العالم بلون أحمر قانٍ، غاضب، كأن دماءك كلها فرّت لتصبغ ما حولك، وتتركك عارياً؛ إلا من طعم المرارة في فمك.

حاصررتي تلك الغيمة في كل لحظة من مراحل طفولتي وصباي ونضجي، وكأنها أضافت أعواماً إلى عمري وقيوداً خفية لكل خطوة في حياتي.

في عامي السادس عشر، تلقيتُ بعد طول انتظار دعوتي الغالية للانضمام إلى مجموعة حقيقية من الأصدقاء، لأول مرة سأكون جزءاً من اجتماع فتيات الكومباوند، مجموعة مقربة من بنات العائلات الراقية، يلتقن باستمرار في أشهر وأعلى الكافيهات، من الصعب اختراقهن أو التواصل معهن، إلا برغبتهن واختيارهن، لم أكد أصدّق اتصال إحداهن بي في الصباح لتخبرني بأنني مدعوة معهن وأنهن في انتظاري!

كم سأشعر بالفخر وأنا أخبر أبي!

دقائق معدودة ودفقتُ الكافيه بقلب يخفق بقوة، لمحتهن ملتقات حول مائدة طويلة، يتحدثن ويضحكن، جميلات، أنيقات، اقتربتُ منهن بوجل، فنبهت إحداهن الأخرى بوصولي، وما أن أصبحت أمامهن مباشرة حتى هتفن فجأة بصوت واحد:

«رقصني رقصني

وحياتك ما تبوسني!

رقصني وبس.. على واحدة ونص!»

تجمّدت الابتسامة على وجهي، غلا دمي، ثم تبخر، تحولت لكومة رماد، لم يبقَ فيها إلا ساقان واهنتان تحركتا بصعوبة لتحملاني بعيداً، وضحكاتهن خلفي تتعالى ممزوجة بأغنية سوزي رفعت الأخيرة.

لم تكن المرة الأولى التي أتعرض فيها للإهانة بسبب سوزي، لن أنسى أبداً نظرة الغرباء التي تبادلتها مع «جيناً» وأنا في الثانية عشرة بعد ثلاث سنوات من الصداقة الوطيدة، أخطأت عندما أخبرتها مرة من هي أمي، وكيف يربكني التنقل بين منزل أبي وعمتي، وأنني تقريباً لا أذكر شيئاً عن أمي المشهورة التي لا تهتم برؤيتي.

عرفت بعدها أنها حكّت لأمها كل شيء، ولم أكن أعرف أن الفتيات يحكين لأمهاتهن كل شيء، وكان قرار أمها الحاسم أن تقطع علاقتها بفتاة مثلي، لم تستوعب من كل ما حكته لها إلا أنني ابنة رمز الإثارة والإغراء الشهيرة «سوزي رفعت»!

بقيت فترة طويلة لا أفهم الابتسامة الباردة على وجه صديقتي ولا سبب تجاهلها لحديثي ودعوتي للعب، كل ما عرفته ذلك الشعور بالتخلي.. بالغبية، وأنا أفف وحدي في ركن في فناء المدرسة، وهي مع صديقاتها يتحدثن ويشرن لي، وإذا ما التقت أعيننا تمنحني ابتسامة الغرباء. أدركت في سن مبكرة أن الأطفال ليسوا ملائكة، وأنهم أكثر قسوة من المجتمع نفسه، وتزداد القسوة مع التقدم في العمر، ليتحول المجتمع بأكمله لمجموعة من الجلادين.

وكي أنجو منهم إما أن أصير مثلهم، أو أخضع بصمت. لم تكن زوجة أبي تسيء معاملتي، على العكس تماماً، كانت تعاملني بتعذيب ورسمية كتعاملها مع أي ضيف، تحرص بهدوء على تذكيري دوماً بأنني لست أكثر من ضيف في منزلها. كنتك الليلة مثلاً دخلت المطبخ وراقبت ما أفعل بابتسامة لبقة، وسألتني: «أستبيتين هنا الليلة؟»

أربكني السؤال وإجابته البديهية تقف في حلقي، فنحن في نهاية الأسبوع، ومنذ سنوات أمضي عطلة الأسبوع معهم، لماذا سيتغير الأمر الآن؟ كنت أخفق مزيج الكريمة الناعم فتوقفت أنظر لها، فتابعت: - ابن خالة وليد ومصطفى سيأتي الليلة للمبيت معهم، ولا أظنك ستشعرين بالراحة في وجود شاب غريب.

ضربتني ذكرى كريهة، وقلت بسرعة أعيد نظري لوعاء الكريمة: - حاضر.. طبعاً.. معك حق، لم أكن أنوي المبيت الليلة بأي حال، سأنهي قالب التيراميسو ليكون جاهزاً عند عودة أبي، وأذهب لعمتي. ضحكك:

- تصرين أن تتعبي نفسك دون داعٍ، أخبرتك أن الطاهية تجيد تحضيره، ثم إن السكريات ليست جيدة لصحة والدك، عموماً خذي راحتك حبيبتي، البيت بيتك.

ابتسمتُ أرد على ابتسامتها المجاملة، وأرد في ذهني: لا! أبي يحب التيراميسو الذي أعده أنا أكثر، هي لا تلاحظ أنه لا يكاد يأكل من الذي تعده الطاهية، ولكنه دوماً ينهي الطبق الذي أعده أنا. سوّيت مزيج الكريمة فوق طبقات البسكويت الندية والفواكه المقطعة، وزينته بطبقة من مسحوق الشيكولاتة، تركتها في الثلاجة، أمل ألا يتأخر أبي الليلة لأراه قبل مغادرتي. لا ألوم زوجته لو أنها لا تحبني، لا شيء يجبرها على حب ابنة زوجها من امرأة أخرى، ولأنها لم تتجب سوى ولدين تُردد دائماً أنها لا تجيد التعامل مع الفتيات، وتشعر بالراحة لأنها لم تُتجب واحدة.

شعرت بالسخط من أخويّ وضيوّفهما المتعددين، الأمر الذي يُجبرني على المغادرة دائماً كأنهما ينتقيان الأيام التي أقضيها هنا ليقلّصوا وجودي أكثر، كنتُ في سنتي الجامعية الأخيرة، كبيرة بما يكفي للحفاظ على نفسي من وجود «شاب غريب» كما تدّعي زوجة أبي، لكنني تعلمتُ ألا أسمح بترك أي فرصة لإهانتني وظلمي مجدداً، بعدما عرفت أن سجلي لديهم ليس ناصعاً كما أظن، وأن أبي وإخوتي والجميع يبدلونهم بسجل أمي وسُمعتها.

فمنذ عامين وقعت مشكلة كبرى كادت تمنعني من التردد على منزل أبي، مشكلها اسمها ياسر. صديق لأخويّ تجمعه صلة قرابة بزوجة أبي، اعتدتُ رؤيته وزيارته في الأيام التي أمضيها معهم، كان لطيفاً معي لا يُظهر ما ينفرنى منه، لكن مع زيارة تلي الأخرى، وصدفة تتبع أختها في لمس يده لجسدي وكأنه خطأ غير مقصود، تصاعد شك كبير مع خوف أكبر أن تكون تلك اللمسات متعمدة، كان يستغل أي فرصة أظهر فيها ليتحدث معي أو يساعدني في المطبخ بشكل عفوي بريء، لكنني بتُّ أخاف منه، أخاف من تصديق حدسي، وأخاف من إخبار أحد، وأقنع نفسي بأنني أتوهم، أو أنني أسأت الفهم، حتى عرفت -وبأقصى الطرق- كم كنتُ غيبيةً في صمتي عندما انسابت يده على مؤخرتي في ضغطة جريئة لا يمكن أن تكون غير مقصودة!

انتفضتُ لحظتها مبتعدةً عنه أنظر إليه بغضب وذعر، وهو يتمم بكلمات الاعتذار على اللمسة غير المتعمدة، حتى كدت أشك في نفسي مجدداً، لكنني تركته بسرعة، وتوجهت هذه المرة لأبي أخبره بما حدث وأنا أرتجف، وأحترق خجلاً!

اربد وجه أبي واستدعى أخي وليد فوراً، الذي كان أول رد فعل أن صرخ مستكراً:

- أتصدق هذا الكلام الفارغ! إنها تتوهم طبعاً! ياسر ابن ناس محترمين!  
صرختُ به:

- ولماذا سأكذب!؟

- اسألي نفسك! لتجذبي الأنظار مثل أمك! أو تداري على خطأ ارتكبتِه! الله أعلم ماذا فعلتِ معه

وتبادرين الآن باتهامه!

هتف أبي:

- اخرسا كلاكما! لا أريد كلمة في هذا الموضوع مرة أخرى! اسمع يا وليد لا تدعُ ياسر للمنزل مجدداً وأيلي موجودة، وأنت..

ونظر لي والشرر يتقافز من عينيه:

- إن تسببت بمشكلة كهذه مرة أخرى لن تدخل في هذا المنزل! يكفي الفضائح التي تسببها لنا أمك! هتقت:

- أنا لم أفعل شيئاً! هو.. هو الحقير الذي يجب أن تُعنفه وتمنعه من دخول المنزل!

- لست أنت من يقرر من يدخل أو يخرج من المنزل! اذهبي لغرفتك فوراً ولا أريد أن أرى وجهك طالما هذا الولد هنا.

ذهبت مقهورة والدموع في عيني وصوت أخي يعلّق بازدياء:

- ماذا تتوقع من ابنة سوزي رفعت!

كان يمكن للأمر أن يكون أسوأ لولا جين ياسر الذي كشفه، فقد انصرف فور أن استدعى أبي وليد، وانقطع عن زيارة البيت لفترة طويلة، لم يعلق أبي بشيء، لكن هذا على الأقل منعه من مواصلة إلقاء اللوم عليّ وحرمانني من دخول المنزل، أما زوجة أبي فلا أعلم إن كانت عرفت بما حدث أم لا، لم تتغير معي؛ نفس المعاملة الرسمية، ونفس ابتسامة الغرباء التي تستقبلني بها.

وقفت في انتظار المصعد، أقاوم الأسي الذي ملأنتني به الذكرى، وقبل أن يصل سمعت صوت غلق باب الشقة الوحيدة المجاورة لنا في الطابق، يفصل السلم بيننا، فلم أر من يغادرها وإن كنتُ خمنت، وابتسمت بترحاب وميار تتضمُّ لي، فهي الصديقة الوحيدة التي اكتسبتها في حادثتي الاستهزاء بي من أولئك الفتيات منذ سنوات، الوحيدة التي لحقت بي واعتذرت، وطببت خاطري، كانت تسكن على بُعد عدة شوارع مني، وسرّني أن نلتقي كلما أتيت للإقامة مع أبي.

- تساعدين قريبتك كالعادة في نقل أسيائها للمنزل الجديد؟

سألته بمرح لتضحك قبل أن تقول:

- استغلال! لكنها آخر مرة! ستكون هي وزوجها في البيت أخيراً من الغد.

دلفنا إلى المصعد نواصل كلامنا:

- يا للخسارة، كنت أريد أن أرحب بها في يومها الأول وأتعرف عليها، لكنني سأتي الأسبوع القادم بأية حال.

ابتسمت ميار مؤكدة:

- هكذا أفضل، حتى تكون قد استقرت، عبير تتوتر بسرعة من الأماكن والأشخاص الجدد.

ضحكنا وعرضتُ عليها توصيلها في طريقي، سرنا لسيارتي الأوبل الزرقاء التي أهداني إياها والذي العام الماضي.

اقترحت عليّ أن نتجول في المول للتسلية، فوافقت، وعندما توقفتُ أمام حقيبة ظهر أنيقة لامعة، تصيح وتتفاخر إعجابًا بها قبل أن تكتشف أنها لا تملك ثمنها الآن، أحببتُ للغاية أن أشتريها لها، وأبهجتني السعادة والامتنان على وجهها وفي كلماتها عندما وافقت أخيرًا على أخذها هدية، أشعر أنها الأخت التي طالما تمنيتها.

أوصلتها لبيت خالتها رغم أن طريقها لم يكن في اتجاهي، إلا أن صحبتها كانت تسعدني ويسليني حديثنا، قبل أن أعود لغرفتي الصامتة بمنزل عمتي.

- ليلي؟ ظننتك ستبتين الليلة عند أبيك.

استقبلتني عمتي متعجبةً، فتصاعدت الدماء الساخنة لوجهي وتلعثمت:

- كان.. عندهم ضيوف.

ربتت على كتفي بمودة:

- طيب، اذهبي لتنامي الآن.

- حاضر، سأمرُّ بجديتي أولاً.

سرتُ أقطع الرواق باتجاه غرفة جدتي، فتحتُ الباب فغمرتني رائحة القرنفل والريحان اللذين تحرص على وجودهما في كل ركن من غرفتها، وجدتها على فراشها بوجهها الأبيض وتجعيداته الرقيقة، والنظارة ذات الإطار الفضي متدلية فوق أنفها، منهمكة كالعادة في تطريز قطعة «كانافا» جديدة، بديعة الجمال.

- الله! تسلّم يدك.

رفعت وجهها لي، وابتهجت ملامحها لصيحة إعجابي، وأنا أجلس بجانبها.

- سلمت يا حبيبتني، وسلّمك الله من كل شر، ظننتك عند توفيق!

هزرت رأسي نافية دون رد، فتابعت:

- هكذا أفضل، لا أحد يؤنسني غيرك، قومي شغلي التلفزيون يسلينا حتى ننام.

ابتسمت لها ونهضت مسرورةً أعرف القناة التي تريدها، وقضيت الليلة معها نستمتع للأغاني القديمة حتى غفت قبلي، فأغلقت التلفاز والأنوار وعدت لغرفتي، أفضل حالاً مما جئت به، كما يحدث دومًا كلما قضيت وقتًا معها.

«وقابلتك إنت لقيتك بتغير كل حياتي..»

ماعرفش ازاي أنا حبيبتك..

ماعرفش ازاي يا حياتي..»

رافقتني دندنة الأغنية مبتسمة، لا أدري لمَ لا أتخيل يومي دون أغنية، وهو عشق تعلمت أن أخفيه، أكره الصمت والوحدة، والسكون الطويل، كأن دندنتي الخافتة أنيسي الذي لا يخذلني، وأستغرب أنني لم أكره الأغاني كلها بعد!

حاولت النوم لكن غمرتني سيول من الأفكار، مثيرة التساؤلات المعتادة، أتمنى بشدة لو يمكنني اختيار ماضٍ مختلف، وحياة مختلفة.. لو أنه يواتيني حظ أم كلثوم وأغير كل حياتي! أيمن؟ هل ما حدث بعدها كان استجابةً لدعواتي أم عقابًا لتذمُّري؟ لا أدري، لكنني أذكر جيدًا الصباح الذي رأيته فيه.

غادرت منزل أبي باكراً في السابعة أكره محاضراتي الصباحية، سرتُ في ممشى الحدائق بعيداً عن المبنى لأضيق وقتاً لا أملكه، وعيناوي تجمان كالعادة لحمام السباحة؛ يسحرني منظر الماء الصافي وسط الأشجار الزاهية الخضرة، وأتمنى أن أبقى هنا للأبد.

لكن لأول مرة ألمح على غير العادة شخصاً يسبح في هذا الوقت، فتباطأت خطواتي دون وعي وأنا أراقبه، الانسيابية التي يتحرك بها والسلام المرتسم على وجهه وهو يسبح على ظهره مغمض العينين، تتغام حركات ذراعيه مع موسيقى خافتة غير مألوفة صادرة من هاتفه القريب من حافة الحوض، كل هذا جعلني أتأمله كأنه جزء من الطبيعة، من الصباح البريء، وكأن وجوده هنا بهذا الشكل جزء أصيل ودائم كشروق الشمس.

عشر دقائق تقريباً وقفت مأخوذةً بالموسيقى، بالمشهد، حتى بدا أنه اكتفى وسيغادر الماء، فأجبرت نفسي على الابتعاد بسرعة والخجل يغمرنني.

ظل الاضطراب يحاصرني في الأيام التالية وأنا في منزل عمتي، يخيم عليّ شرود جديد، وأنا أذاكر، وأنا أذهب لجامعتي، وأنا أطهو أكالات عمتي المفضلة، حتى وأنا أجلس مع جدتي أراقب خيوطها الملونة التي تصنع لوحة أنيقة مبهجة.

لا أعرف لماذا لهذا الحد شغلتي رؤيتي للسكان الجديد، رغم أنني تقريباً لم أكد أراه، لكن الحالة التي غمرتني وأنا أراقبه بصمت، حوت دفقة غريبة وجديدة من المشاعر لم تتنبني من قبل.

مرَّ الأسبوع ببطء شديد، وتلهمت أكثر ليوم الخميس الذي يأخذني لمنزل أبي، انتظرت طوال اليوم أن ألمح هنا أو هناك في المنتجع، حتى فكرت في إخبار ميار عنه، لكن الخجل منعني، ثم إنني لم أرها منذ أن أخبرتني أن قريبتها عدلت عن رأيها، ولن تنتقل لشقتها الآن.

قررت في النهاية أن أغادر المنزل يوم الجمعة في السابعة صباحاً وأذهب لحمام السباحة، فقط أريد أن أتأكد مما إن كان هناك، وأنني لم أكن أتوهم. اقتربت ببطء من المسبح، وندى الصباح يزين الأشجار، والكون كله في سبات، تسللت لي موسيقى ناعمة لم أنسها من المرة الماضية، اقتربت أكثر بخطوات مرتجفة، ووجدته، نعم كان هناك، تماماً كما رأيته المرة الماضية، يسبح بنعومة وهدوء كأن العالم كله لا يعنيه. وقفت متسمة كأنني وقعت على اكتشاف سحري، لا أفهم.. ولا أريد أن أفهم تلك الخفة التي تغمرنني وأنا أنظر إليه.

باتت الأيام التي أمضيها عند أبي تأخذ طابعاً مختلفاً وشعوراً مغايراً، لم أفكر يوماً بالاقتراب منه أو التعرف عليه أو معرفة أي شيء عنه، حتى إنني ترددت كثيراً أن أحكي لجدتي عنه رغم

رغبتى الشديدة في ذلك، لكن لم أعرف ماذا سأقول، فلم يكن من طبيعتي تلك الأمور التي تهتم بها الفتيات، ولم أسمح لأي شاب بتوهم احتمال وجود أي علاقة بيني وبينه. حتى بعد مرور أسابيع على اكتشافي له، ظل فقط هناك كجزء من صباحي، ظاهرة طبيعية مبهجة، مع موسيقاه وجفنيه المغمضين بسكينة تبعث الراحة والسلام في نفسي، كأني أملك العالم كله، كأني حرة.. خفيفة، بلا غيوم.

حتى كان ذاك المساء الذي سأعود فيه كالعادة لمنزل عمتي، حملت حقيبتى الصغيرة على ظهري أفكر في الصباح الذي سيفوتني غدًا، أفكر إن كان عليّ مقاومة هذا الجنون، فلا أعرف من يكون، قد يكون متزوجًا.. كئيبيًا.. شابًا عابثًا! قد يكون أي شيء، أي شيء لا يعرف بوجودي في الحياة.

رمتُ غرفتي بنظرة أخيرة روتينية أتأكد من عدم نسياني لشيء ضروري، عندما التقطتني نظرات عيني في المرأة ولم أستطع الإفلات، تمامًا كما تقع عينك بالخطأ على شخص لا تؤدُّ تحيته، مفضلًا التظاهر بعدم رؤيته، لكنه أمسك بنظرتك. لطالما كرهتُ شبيهي بسوزي، رغم الجمال الذي ورثته عنها كما يقول الجميع، لكني لا أرى تشابهًا أكثر من عيني خضراوين واسعتين، وبشرة بيضاء، ثم ينقطع الشبه بشعرها الأشقر المصبوغ بإتقان، ونصف كيلو من المكياج تزين به وجهها لاسيما عينيها، عكسي أنا، فلا أحب المكياج ولا أضعه إلا نادرًا، ويكمل شعري الأسود الاختلاف بيننا.

«إنها جميلة مثل أمها!»

تردد عمتي بقلق تلك الجملة كلما كبرتُ، فنُظمتها جدتي بمحبة واثقة:

«ليلي ابنتنا نحن، ليست مثل أمها».

فيملؤني ارتياح غريب، وأحرص أن أكون الفتاة المثالية التي تستحق محبتهم.. ومحبة أبي. تحمستُ لارتداء الحجاب في بداية دخولي الجامعة بتشجيع من جدتي وعمتي، وعرفت أنني بذلك سأقطع أي شبه بيني وبين سوزي، لكن كان ردُّ أبي ألا أتعجل، فزوجته لم تلبسه إلا منذ سنوات قليلة، فلا داعي لإحراجها، بُهتُ وكتمت مشاعري، ولم أفاتحه في الأمر مجددًا.

تأخر أبي، هاتفته، أريد أن أراه قبل أن أرحل، فأخبرني ألا أنتظره؛ لأنه لا يعرف متى سيعود. سرتُ أغانى المنزل دون توديع أحد، وعندما غادرتُ المصعد أخذتني قدمي للتجوال حول المبنى، أراقب مكاني السحري، أسخر من تفاهتي، أفكر في محادثة ميار لأحكي لها عن خيالاتي، لكنني كنتُ متأكدة أنه لن يحدث شيء، فقد أدركتُ منذ سنوات عديدة أنني البطلة الثانوية في الحياة، الشاهدة على تغيرات ومغامرات الآخرين، كل البطلات التي رأيتهن في الأفلام والمسلسلات متمردات، عنيدات، يتسبين في المشاكل والمآسي، وفي النهاية يحصلن على دعم ومحبة الجميع، عكسي تمامًا، عاقلة، هادئة، مطيعة، لا أستفز الحياة لتُخرج لي دوري الذي

أستحقه.

تسلل لسمعي فجأة صوت الموسيقى المميزة التي أسمعها كل صباح عند حوض السباحة، فتحركتُ بحذر تجاه الصوت ألحظ اختلافاً فيه، لكن وضوحه يخبرني بأنني في الطريق الصحيح، توقفتُ أمام غرفة الموسيقى، كانت غرفة كبيرة متعددة الأبواب، بقمم بيضاوية الشكل، مفتوحة دائماً لتطلّ على الحدائق حولها، تنتشر آلاتها الموسيقية بأناقة في الأركان، يتوسطها بيانو أسود حديث يشد نظري كلما مررت به، لكن لم أقترّب منه يوماً. تسمرت كما يحدث لي بالضبط في الصباح، تسمرتُ أراقبه وهو يعزف عليه موسيقاه المفضلة، بنفس الانسيابية التي يسبح بها، لأجدني أفقد الإحساس بكل شيء وأنا أراقبه وأستمع لموسيقاه كأنه من صنع خيالي، بعيد عن الواقع.. بعيد عن الأرض.

لكن تلك المرة لم أكن حذرة بما يكفي، لم أنتبه أنه اكتفى إلا عندما نهض واقفاً وبتُ فجأة أمامه وجهاً لوجه، مرّ تعبير دهشة سريع على وجهه قبل أن يبتسم قليلاً:  
- أهلاً.

أشحتُ بنظراتي عنه والدماء الساخنة المندفعة لوجهي تفضح اضطرابي، ورددت بسرعة:

- أهلاً.. أسفة لإزعاجك، لكن الموسيقى جذبتني.

- لا يوجد إزعاج أبداً، سعيد أن الموسيقى أعجبتك.

هزرتُ رأسي بحركة قد لا تعني أي شيء، وتحركتُ مبتعدةً بسرعة وخفقات قلبي تصل لمعدل غير طبيعي، لمحتُ عبوساً خفيفاً في وجهه، وشعرت وكأنني أهنته بهروبي الوجّل، لكنني توجهتُ مهولة لموقف السيارات، أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني!

\* \* \*

«يا حبيبي لأ لأ

البعد مش هسمح لأ

تعالى كده وتعالى كده!»

تجمّد الهواء في صدري وصوت الأغنية الأخيرة لسوزي رفعت يصل إليّ بوضوح، التفتُ لأجد أخويّ يشاهدانها على هاتف أحدهما، يكتمان ضحكهما بصعوبة، ويختلسان النظر لي!  
أغلقتُ عليّ غرفتي أتمنى ككل مرة تُصوّر فيها سوزي رفعت أغنية جديدة، لو أنني أختفي من الحياة كلها، لو أنني لا أذهب للجامعة، لو أنني أترك منزل عمتي فلا تسخر مني ابنتها المراهقتان، ولا أذهب لمنزل أبي حيث زوجته وولداها، لو يفقد الجميع ذاكرتهم فجأة وينسون أنني ابنة سوزي رفعت.

كان تصوير الأغنية لا يختلف كثيراً عن باقي أغانيها، ثوب فاضح والكاميرا تنتقل ما بين صدرها البارز ومؤخرتها الراقصة، ليزداد إحساسي بالعار! كل مرة يكتشف فيها زميل أو أكثر في

كليتي أنني ابنة سوزي رفعت، تلمع عيناه كأنه يتوقع أن أخلع ملابسي فجأة وأرقص له!  
كنتُ أشعر بأنها تُعرِّيني أنا أمام كل هذه العيون، رغم محاولاتي المضنية كي لا يعرف أحد أنها  
أمي، أو يلحظ الشبه بيننا، هناك دومًا من يكتشف الأمر وينشره، يتجمهر مع أصدقائه يتهامسون  
حولي، ويرمقونني بنظرات شهوانية كأنهم يضعونني مكانها في أغنياتها.

اختفيتُ في المطبخ باقي اليوم بعيدًا عن أخويّ، أعدّ وجبة معقدة بمكونات متعددة، وكثير من  
العجن باليد الذي يتركني منهكة، لا أعرف في أي مرحلة فسدت مني الوصفة، وانتهى الحال بأن  
رمى كل شيء في سلة القمامة، وغادرت. توجهت لباب المنزل وغادرت بصمت، لا يسألني أحد  
إلى أين، فلم يكن في ذهني أي مكان ألجأ إليه، لا أفكر إلا في البقاء بعيدًا عن كل الناس، وأجلس  
وحدي في انتظار أبي. بقيتُ جالسة في ركن منزلي من الحديقة المحيطة بالبنية حتى انتابني الملل،  
فنهضتُ أتجول ببطء، ووصلتُ لقاعة الموسيقى، كانت فارغة، دخلتُ أجلس بوجل على مقعد  
البيانو أنظر لمفاتيحه العاجية والسوداء بأسى، كيف يمكن لنفس الشيء أن يصنع موسيقى راقية  
كالتى أحبها، ولحن مبتذل رخيص كأغاني سوزي!؟

«تعرفين؟»

أجفلتُ وهو ينضمُّ لي فجأة، تقدّم بابتسامة صغيرة ونظرة مطمئنة في عينيه، فوفقت بارتباك،  
واقترب هو من البيانو يمرر أصابعه على المفاتيح برقة كأنه يلقي التحية عليها.  
قلت:

- لا، لا أجد العزف.

نظر لي يتأملني بتساؤل، فأخذتُ لوهلة بالنظر إليه، ها هو خيالي الذي أراه من بعيد لأيام  
وأسابيع يقف أمامي، كان شابًا في أواخر العشرينات كما خمّنت، طويل، رياضي القامة، أسود  
الشعر، يتماوج دفا عميق في نظراته، كأنه يحمل سَكينة العالم في عينيه، يُكمل مظهره المميز  
ملامح متناسقة في بشرة قمحية فاتحة، وتحيطه هالة من الهدوء والرصانة لا يمكن إغفالها.

- أتريدين التعلم؟

استجمعت شتات ذهني، وغمرني الذعر فجأة، ربما يعرف أنني ابنة سوزي رفعت ويظنني فتاة  
سهلة، رخيصة، كما تبدو هي.

- لا شكرًا!!

انطلقت مبتعدة، قبل أن أشعر بحماقتي، أخشى أن يشعر بالإهانة كالمرّة الماضية، فأبطأت  
خطواتي، والنقت لأجده واقفًا كما تركته وملامحه لا تُظهر مشاعره. قلت مباشرة:

- أنا أيضًا أسكن هنا، في الطابق الخامس.

بدا مترددًا للحظة قبل أن يتقدم مني ويسأل:

- ابنة توفيق النجار؟

- أتعرف أبي؟

سألته بمزيج من الدهشة والسعادة، فعلت الابتسامة وجهه:

- رجل اقتصادي عظيم، مَنْ لا يعرفه؟

ابتسمتُ بخجل، فسألني:

- أمازلتِ تدرسين؟

- نعم، في سنتي الأخيرة، أدرس إدارة أعمال.

- أها.. لتصبحي سيّدة أعمال مثل والدك؟

لم أتمكن من إخفاء ضحكة صغيرة، وقلت:

- لا على الإطلاق، لكنه.. اختيار أبي، وأحبيته.

غمز اللطف عينيه:

- جميل.. أتعلمين أنك تبدين أصغر عمراً؟ ظننتك في الثانوية على الأكثر.

ملأت الابتسامة وجهي مجدداً دون أن أقدر على منعها، رغم أنني سمعت تلك الجملة كثيراً من

قبل.

- كلا، أتممت الثانية والعشرين منذ شهرين.

وواتنتي الجرأة لأسأله:

- وأنت ماذا تعمل؟

- لديّ شركة صغيرة لبيع وتسويق الإلكترونيات، أنا «سليم» بالمناسبة.

- أهلا بك، وأنا «ليلي».

تبادلنا ابتسامة صغيرة والفرشات تكاد تحلق حولي رأسي، أشعر بأنني في موقف خيالي لا

ينتمي لحياتي، كأنني فتاة أخرى تتصرف دون إرادتي.

قلتُ وأنا أريد للحديث ألا يتوقف:

- لكن الإلكترونيات مجال بعيد جداً عن العزف.. والفن.

ضحك:

-إنها مجرد هواية، ليس لي علاقة بالفن إطلاقاً.

هواية كالسباحة أيضاً، لم أقلها لكن ابتسمت، كأنني لا أستطيع التوقف عن الابتسام في وجوده،

أشعر فجأة بأنني أعرف عنه الكثير.

انتبهتُ لأضواء سيارة تتجه للجراج، وعرفت أنه أبي.

- بابا وصل.. كنت أنتظره، عن إذنك.

وهرولت مبتعدةً أنتظر أبي عند المصعد، حتى رأيته قادماً، كان بكامل بذلته الرسمية كالعادة،

طويلاً مهيباً، ووجهه الوسيم عابس بصرامة، سألني:

- ماذا تفعلين في الخارج حتى الآن؟  
قلت بسرعة:

- لم أكن في الخارج، كنت فقط أنتظرِكَ لأسلم عليك قبل أن أرحل.  
وصل المصعد وهو يقول متهكمًا:

- لماذا؟ أوراكَ مصيبة أنتِ الأخرى! يكفي الفضائح التي تسببها لي سوزي الزفت!  
نكست برأسي:

- كنتُ فقط أريد أن أمُضي بعض الوقت معك.  
سألني بنفاد صبر:

- هل هناك مشكلة أم لا يا ليلي؟

- لا، لا توجد مشكلة.

- إذن دعيني أرتاح، واذهبي لعمتك كي لا تتأخري أكثر من ذلك.  
وتركني ليختفي في المصعد دون كلمة أخرى.

توجهتُ لسيارتي يلفني الحزن وينسيني البهجة التي تركها في حديثي مع سليم.

فبالرغم من انفصال أبي عن سوزي منذ سنوات طويلة، إلا أن بعض الصحف ومواقع الأخبار تربط بين اسميهما؛ بما أن كليهما مشهور في مجاله، والأسوأ أن يحاربه منافسوه بإطلاق الشائعات عن رجوعه لسوزي أو فبركة أي خبر يجمعهما، فيجنُّ جنون أبي.

يخرج كل ذلك في نفور واضح في تعامله معي، كأنني أذكره بغلظته القديمة، فأحاول تجنبه تلك الأيام رغم احتياجي له ولمواساته، وإحساس بالحزن الغاضب يثقل قلبي، فلم اختر أن تكون أمي، ليت كان بيدي الاختيار.. ليت!

مرّت الأيام ببطء شديد في بيت عمتي، طهوت كثيرًا، وحدثت ميار كثيرًا في الهاتف، أتصل بها عشرين مرة في اليوم لأحكي لها عن سليم، ثم يعقد الخجل لساني وأراجع.

«يا ساكن في الهوى قلبي وساكن في الديار جاري

جمالكَ كل يوم جنبي.. أسرني وانت مش داري!»

يضرب شجن محمد فوزي قلبي، ويتغير لون وجهي وأنا أجلس بجوار جدتي أستمتع معها، فأخشى من اعترافٍ مُعلق بين عيني.

عدتُ لمنزل أبي في الموعد المعتاد، قضيتُ ليلتي دون أن أنام جيدًا، ومع ذلك غادرتُ المنزل في الساعة صباحًا، يقودني إحساس قوي بأنني أريد أن أراه، ولو حتى دون أن يدري كالفتره الماضية، أتوق للراحة والسكينة التي أنالهما برويته دون أن أفهم لماذا. لكن ما أن توقفت أمام حمام السباحة حتى وجدته، ورآني، تردد قليلًا ثم اقترب، كان مازال يرتدي التيشيرت فوق المايوه والموسيقى تتصاعد بنعومة من هاتفه، ولم يسبح بعد. ابتسم لي:

- صباح الخير، لم أظن أن هناك من يستيقظ يوم الجمعة مبكرًا مثلي.

ابتسمت قليلاً أقاوم ثقل قلبي:

- أحب أن أستيقظ باكراً.

- رائع.

غمرنا صمت مرتبك، قبل أن أتحرك مبتعداً بعدما شعرت بأنني أعطّله عما يفعل، لكنه قال فجأة:

- لا أظنك تعملين أو تتدربين في مكان ما، أم إنك تتدربين في شركات والدك؟

توقفت متفاجئة، أرد «لا»، يحضرني ألم رفض أبي للتدرّب في شركته.

- لديّ عرض مناسب لك بما أنك لستِ كسولة وتستيقظين مبكرًا، أحتاجك للتدرّب عندي في

الشركة في قسم المبيعات، أعرف أنه ليس تخصصك تمامًا، لكنها فرصة جيدة للتعرف على سير

العمل ومراقبة السوق، وفرصة لي أن أستفيد من موظفة نشيطة دون راتب كبير.

رفعت عينيّ له بدهشة تحولت لامتنان شديد، أجمتني الفرحة بالعرض عن الكلام.

- هذا رائع.. جميل.. يمكنني أن أبدأ من الغد!

اتسعت ابتسامته:

- فلنقل من بداية الأسبوع، حتى أرتب كل شيء لاستقبال موظفتنا الجديدة، ونحدد الأيام المتاحة

كي لا تتعارض مع دراستك.

أومأت برأسي تخرجني لهفتي الواضحة، لكن نظرة الاحتواء في عينيه غمرتني، شعرت بأنني

لا أحتاج لشرح نفسي، وإحساس يؤكد لي، هو يفهم.

بعد الظهر التقيت ميار في المول الذي اعتدنا الذهاب إليه، ولم أستطع إلا أن أهتف بحماس ما

أن رأيتها:

- سأعمل يا ميار! سأندرب في المبيعات!

ضحكت مستغربة:

- مع والدك؟

- لا.

ومنعني خجل مباغت من مصارحتها، وقلتُ كاذبةً:

- بل مع صديق له.

- جميل، اسأليه أن يُدرّبني أيضًا، لكن فقط إن كان بمرتب كبير ومواعيد مناسبة.

ضحكت بمحبة وقلت:

- سأسأله، حاضر.

وكتعويض عن كذبي اشتريت لها ثوبًا أعجبها ودعوته للغداء في مطعم فاخر، فأنفقتُ

مصروف الشهر كله.

كذبت لأول مرة على أسرتي، وأخبرت الجميع أن ميار وجدت لي عملاً في شركة أحد أقاربها، وتحرّجت أن أنطق باسم سليم، بدأت العمل وخفة جديدة تغمرني، كعجين هش، مختمر، جاهز لحرارة الفرن، كنتُ مسؤولة من نهال، موظفة أكبر سنًا وأكثر خبرةً، وبتُّ مساعدة لها مع التدريب. كانت الشركة تحتل شقتين في عمارة فاخرة، قريبة من منتجنا السكني، أبهرتني من أول لحظة الأجهزة التكنولوجية الحديثة، والجدران الزجاجية بين المكاتب، كان عدد الموظفين محدودًا، يستقبلون أسئلتني واستفساراتي دومًا بابتسامة ودودة، رغم انهماكهم في العمل.

لم أكن أرى سليم كثيرًا، عرفتُ إنه لديه عملاً في مكان آخر، وأن هذه الشركة جزء من مؤسسة أخرى، ولا يأتي هنا إلا ثلاثة أيام في الأسبوع، ويدير كل شيء من بعيد، لكن عندما يكون موجودًا لا يضيع أي وقت بلا عمل واتصالات مع العملاء، ينقل نشاطه وحماسه للموظفين، أراقبه من بعيد، وطاقة من الود تمتد منه وتغمرني ولو التقت أعيننا لبضع ثوانٍ، فيمنحني شعورًا منعشًا بالراحة والسكينة.

ودون اتفاق بتنا نلتقي بشكل شبه منتظم عند حوض السباحة أو غرفة البيانو، وفي الليل يبدو حوض السباحة أكثر جمالًا مع الإضاءات الموزعة بفنّ بين الأشجار المحيطة به، فيترقرق الماء بدرجات الأزرق والأخضر، كأنه جزء من قصة خيالية. أخلق أذاريًا كل مساءً أقضيه عند أبي لمغادرة المنزل، أعرف أن سليم ينتظرنني. وربما نتشارك الأرجوحة الواسعة أمام المياه، إن لم نجد آخرين سبقونا لها. لا أجرؤ على الحديث حتى يبدأ هو، اكتشفتُ ولعه بالقراءة، ولم تكن تجذبني من قبل، لكنه كان يخبرني كل مرة نلتقي فيها خارج العمل بما يقرأ، ويحكي لي عن كتابه المفضلين، كشف لي عالمًا جديدًا حيًا، لم أنتبه له قبلاً.

لم أع مدى تعلقي به إلا في الأيام التي لا يحضر فيها للشركة، وما أن يأتي حتى أتوجّه لمكتبه أول شيء وكلني لهفة، أريده أن يأخذ ثقلي، أن يمسنني سحره الفطري الذي يمنحني أجنحة بدلًا من القدمين.

لكن فاجأني ذات يوم وجود صديق معه، وأزعجني أكثر أنه نهض بمجرد دخولي إلى الغرفة ليسألني بجرأة وهو يتأملني:

- أنتِ جديدة هنا، لم أرك من قبل.

نظرتُ لسليم بارتباك واستفسار قبل أن أقول موجهةً كلماتي له:

- معذرة لم أكن أعرف أن معك أحدًا.

وقبل أن أتحرك مغادرةً بادر الصديق ببشاشة ومرح يقدم نفسه لي:

- لستُ غريبًا لا تقلقي، أنا هشام الشريف صديق سليم، لا تصدميني وتقولني إنك لم تسمعي عن

اسمي من قبل.

عدتُ أنظر لسليم متوترةً، فنهض يقول بهدوء:

- هشام يحب المزاح، والتمثيل أيضًا.

ضحك هشام وقال بعينين مليئتين بالحيوية:

- قريبًا ستسمعون جميعًا عن الممثل العبقرى هشام الشريف.

وحرّك يديه بطريقة مسرحية، فتراجعتُ خطوة أتمنى أن أغادر دون أن ينتبه، لكنه بادرني بنظرة متمعنة:

- ألا تريدان التمثيل؟

- لا!

ظننت أن رفضي كان حادًا، لكن يبدو أنه لم ينتبه؛ لأنه ألحَّ قائلاً:

- لماذا؟! لديك وجه رائع مميز، سيبدو مذهلاً أمام الكاميرا، حتى إنك تذكريني بممثلة ما.. من؟

قلت الرد الجاهز المعتاد لأصرف تفكيره عن الحقيقة الأخرى:

- نور.. نور اللبناية.

- ممكن.. ممكن فعلاً، لكن هناك اسم آخر في ذهني لا يحضرني الآن.

انسحبت الدماء من وجهي، وقال سليم بحزم:

- هشام توقّف عن المزاح، ليلي لديها الكثير من العمل.

ونظر لي مؤكداً:

- يمكنك الذهاب، تفضلي.

- ليلي! يا له من اسم جميل.. يلائمك.

لم أردّ وتحركت فوراً أغادر الغرفة بأنفاس مخنوقة، عدت مرتجفةً لمكتبي.. كل شيء سينهار..

سليم سيعرف أنني ابنة سوزي رفعت، وسيبعدني عن حياته.. سيحتقروني! سيتهرب مني وينتهي كل شيء.

- ماذا بك؟

سألنتي نهال بقلق.

- أشعر بصداق قوي، لم أنم جيداً الأيام الماضية.

ثم أخذت حقيبتى دون تفكير أقول:

- أبلغى سليم اعتذاري، لكن يجب أن أذهب الآن.

وتحركت بسرعة دون أن أمهلها فرصة للاستفسار.

دُرتُ بسيارتي في الشوارع والطرق، أطفئ أي أغنية تدور، وأتوقف دون أن أغادرها، ربما

هذا المكان الوحيد الذي يخصني، وحدي أجلس فيها، أفكر، أبكي، أقرر أي منزل سأكون ضيفة فيه

الليلة، أؤنب نفسي، ألوم جودها، عمتي تحبني، وجدتي بلا شك، وبالتأكيد أبي أيضًا يحبني حتى لو لم يُظهر ذلك، فلم يحرمني يومًا من شيء. فلماذا يجعلني وجود شخص واحد بعيد بانسة لهذا الحد! كيف لمجرد حضور ذهني لأحدهم أن يمزق حياتك ويتعس قلبك على الدوام؟ توجهت في النهاية للكومباوند، أستقر في غرفة البيانو أجلس أمامه بصمت، كأني أنتظر منه أن يجعلني نغمة ناعمة سابعة في الفضاء، لا حقيقة ثابتة على الأرض.

- لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل إن لم أجدك هنا.  
ظهر سليم أمامي ولهفة وقلق في عينيه، اقترب مني يجلس على حافة المقعد بجانبني، ينظر لي مباشرة ويقول:

- أنا آسف لمضايقة هشام لك.

قلتُ دون أن أنظر إليه:

- لا مشكلة.. لم يضايقتني.

صمتنا بكآبة، ثم سألته:

- أتعرف لون الحزن يا سليم؟

نظر لي دون رد، فأكملتُ ووخز ساخن يملأ عيني:

- شفاف.. الحزن شفاف يا سليم، يحيط بك من كل جانب دون أن تراه، لكنك تشعر بثقله، تعرفه عندما يأخذك لفراغ عميق بلا نهاية.

مرّت لحظة صمت، ثم قال بثبات:

- ليلي.. أنت شخصية مستقلة ولست تابعة لأي مخلوق.

نظرت له بدهشة وخوف من أن أسأل، بدا الدفاع في عينيه وتابع:

- لا تدعي أمرًا كهذا يُفسد حياتك، لست أول أو آخر فتاة أمها تعمل في الفن، حتى لو نوع

رديء من الفن، هي المسؤولة عن أفعالها وهي من تتحمل عواقب ذلك وليس أنت.

- كنت تعلم؟!!

سألتُ بصوت متكسر كصدي قلبي، فقال بحنان:

- نعم أعلم، وما الفرق؟ عندما أخبرتني أنك ابنة توفيق النجار، علمت أنك ابنة زوجته الأولى،

لم يؤثر ذلك في رأيي فيك ولا علاقتي بك.

أطرقت رأسي ودموعي تنساب بلا إرادة.

- أنت لا تشبهينها أبدًا، لا تشبهين إلا الملائكة يا ليلي.

رفعتُ وجهي أنظر إليه لتحتويني عيناه، تنفذ لأعماق نفسي وتطمئنهما، مسح دموعي فوق

وجنتي بنعومة وقال:

- الحياة أمامك بكل احتمالاتها، يمكنك اختيار الحياة التي تريدين، لا تركزي تفكيرك في كل ما

لا تريدينه.. كل ما تخافين منه، الخوف يدمر كل شيء يا ليلي، يسجنك في مخاوفك ويقودك لتحقيقها دون أن تشعر. ركزي فيما تريدينه.. فيما تحببينه أنت، دعي الماضي، لا تحاولي إصلاحه، فهو لا يمكن إصلاحه، يمكننا فقط تجاوزه والبدء من جديد، هناك دومًا بداية جديدة تنتظرنا فقط إذا أخذنا القرار.

نظرتُ له كالمسحورة:

- وكيف أتخلص من الخوف؟

تماوجت مشاعر كثيرة في عيني:

- بالحب.. ربما.

انتزعتُ نفسي بصعوبة من سحر كلماته، ووقفتُ مبتعدةً عنه، كنت أرتعش معقودة اللسان، لا أذكر ماذا قلت، فقط جريت.. هربت أختبئ في أي مكان بعيدًا عنه.

كنتُ خائفة جدًا، ومضطربة جدًا، وفوران غير معتاد في مشاعري يملؤني ويكاد ينفذ من صدري، لم أشعر يومًا بمثل هذا التوهج من المشاعر أو يغمرنني هذا الارتباك، كل شيء خبرته معه يُغرقني أكثر في سحره، سباحته، موسيقاه، كلامه، كتبه، عالم زاہِ ثري أخذني إليه وملك مشاعري، لا أعرف أين سينتهي بي ولا كيف أقاوم غوايته الناعمة.

في اليوم التالي وبعد ساعتين من وصولي شركته تواجها، كانت نهال غادرت لمقابلة عميل مهم، ولم يبقَ غيري في مكتبها، فأتى سليم لي.. وقف بتردد عند الباب.

- جئتُ أطمئنُ عليك.. أنتِ بخير؟ كل شيء بخير؟

أومات متحاشيةً النظر إليه، مرّت لحظة مفعمة بالارتباك، قبل أن أقول:

- ذلك الكلام الذي قلته عن الاحتمالات واختيار حياتنا، هل هو حقيقي فعلاً؟ أيمكنني.. أيمكن

لأي أحد ذلك؟

انتشرت الابتسامة في وجهه وقال:

- بالتأكيد، سأحدثك بالتفصيل عن كل شيء، الليلة في مكاننا المعتاد بعد العمل.

رغم إجماعي من تعبير «مكاننا المعتاد»، إلا أن الحميمية في الجملة مسّت قلبي وأسعدته.

ذلك المساء هو من سبقني لغرفة البيانو، ذهبت فوجدته يعزف موسيقاه المميزة، توقفت أراقبه،

أحب مشاهدته، لا أدري أنني أجعله يتسلل إليّ كل يوم أكثر، يسري في دمي ويسكنه دون جهد.

- أحب هذه المقطوعة، تساعدني على الاسترخاء.

قال بعد أن توقف عن العزف، فابتسمتُ أرد:

- أعرف أنك تحبها.

تشابكت نظراتنا للحظات قبل أن يقول مستجمعًا تركيزه:

- نأتي للمهم، فلنتحدث ونحن نسير.

وسرنا نتجول في الحقائق المحيطة وهو يخبرني بجديّة:

- تعرفت منذ فترة على نظرية تؤمن بأن هناك ما يسمى بـ«فضاء الاحتمالات»، حقل طاقي من المعلومات، فيه كل شيء، كل الاحتمالات الممكنة لحياتك سواء التي حدثت أو ستحدث أو حتى لم تحدث. سيناريو جاهز بكل التفاصيل، بمعطياته المختلفة التي تجعل منه خط حياة. وكل خط حياة لدينا فيه عدد غير محدود من الاحتمالات، ونحن من نختر خط الحياة الذي نريد، أنا مثلاً، كان يمكن أن ألك وأدعك تبتعدين عني، لا ألق بك، لا أعرض عليك أن تتدربي في شركتي، وكان هذا سيأخذ كلاً منا وأنا وأنت لخط حياة مختلف واحتمال مختلف، لكنني اخترت أن يتقاطع خط حياتي مع خط حياتك.. اخترت أن تكوني احتمالاً في حياتي.

توقفت أنظر إليه بضحكة صغيرة:

- أنتَ تمزح بالتأكيد! لم أسمع هذا الكلام من قبل.

بادلني الابتسام:

- إنها نظرية كما أخبرتك، لكنني مؤمن بها.

- أتصدق فعلاً أن كل شيء بهذه السهولة؟

- ليس سهلاً، لكن ما نملكه هو أن نستمر في المحاولة.

- والماضي يا سليم؟ أيمكنني اختيار حياة ليست فيها سوزي رفعت؟

- إنه ليس اختيارك يا ليلي، بل اختيار أبيك، دعي الماضي.. تقبّليه، لا تتوهمي إنه خطأك

فتدمري كل شيء، هناك ألف احتمال وألف حياة في انتظارك، عليك فقط أن تختاري إما أن تكوني سعيدة وإما أن تغلّقي في أوهم الماضي.

- وكيف أختار؟ كيف يمكنني؟

- عيشي اللحظة، قرري بداخلك أنك بالفعل حصلت على الحياة التي تريدينها، تعيشينها،

واجذبي كل الأحداث السعيدة لك وأنت واثقة بأنها ستتحقق.

- نتحدث كأن كل شيء بأيدينا فعلاً! أتعلم ما المهنة التي أريدها فعلاً بعيداً عن رغبات أبي ولا

أجرؤ على مفاتحته في الأمر؟ طاهية في مطعم!

ضحك بدهشة:

- تمزحين! أتجيدين الطهي لهذا الحد؟

ابتسمتُ أهز كتفي بزهو وخجل:

- يقولون هذا! لكن حتى هذه الأمنية البسيطة لا أستطيع اختيارها؛ لأنها اختيار لن يُعجب أبي!

فأين تلك الحرية التي نتحدث عنها؟

- الحرية لا تُمنح يا ليلي، بل تُنتزع بالإصرار والصمود، إن رتبت أفكارك ورغباتك، إن

عرفت ما هي أولوياتك وحددت هدفك ستصلين.

تأملته قليلاً:

- وهل وصلت أنت؟

اتسعت ابتسامته وغمرني بنظرته الحانية:

- في الطريق، ومن يدري ربما نصل معاً.

أطرقتُ بخجل، وتابعنا سيرنا بصمت متناغم، أنسج كل الاحتمالات التي تجمعنا معاً.

\* \* \*

أتانا صديقه هشام مرة أخرى يملأ المكان ضحكاً ومزاحاً، وأصر على دعوتنا لمشاهدته مع فرقته، وبحث عني خصيصاً ليتأكد من حضوري، وابتسامته اللطيفة المرححة تلمع في عينيه، فلم أتمكن من الرفض.

في المسرح الذي بدا أصغر وأبسط مما توقعت، اتخذنا أنا وسليم مقعدين متجاورين، كان الحضور قليلاً، ولمحنا هشام من على المسرح، يُحيينا بابتسامة مرحة.

كان العرض خفيفاً لطيفاً، لكن لم يلفت انتباهي موهبة خاصة في أي من فريق التمثيل، ولا هشام نفسه، كان يؤدي دوره ببساطة ومرح، كما هو في الحياة العادية.

لكن عندما سألنا بعد انتهاء العرض عن رأينا، صحننا «رائع! عظيم.. موهبة كبيرة!» ولم يكذب يرفع نظراته عني حتى وهو يخبرنا بابتسامة واسعة:

- أعرف أن القاعة أصغر مما توقعتما، لكن كل النجوم بدأوا من هنا.. من المسرح، نجيب الريحاني، وفؤاد المهندس، وعبد المنعم مدبولي، وغيرهم كثيرون، المهم أن نبدأ بداية صحيحة، التحقتُ أيضاً بالمعهد العالي للتمثيل، الفنان يجب أن يدرس ويتعلم طيلة حياته.

تمتت مؤيدةً وسليم يتمل بجواري، وعندما انشغل هشام مع بعض زملائه، أصر سليم على الرحيل، ولم أعارضه.

- هل أنتما صديقان منذ وقت طويل؟

سألته في الطريق، فأجاب باختصار:

- كنا جارين في طفولتنا، ونتواصل من حين لآخر.

قلت ضاحكة:

- يحدث هذا بالتأكيد عند كل عرض جديد ليدعوك، الحضور قليل جداً.

- هذه طبيعة تلك المسارح والفرق الهاوية.

شعرت من اقتضابه إما أنه لا يجب هذا الحديث، وإما أنه ليس ممن يحبون الكلام أثناء القيادة،

فلذتُ بالصمت بقية الطريق حتى وصلنا.

- أريد أخذ صورة لك.

أخبرني ونحن نقترّب من غرفة البيانو، فتوترت وضحكت.

- اجلسي هنا وانظري لي.  
فعلتُ كما قال لا أقوى على الاعتراض وأنا كتلة من التوتر، سألته فقط وأنا أجلس أمام البيانو:  
- لماذا تريد صورة لي؟  
- لأنني أريدك أن تري شيئاً.. حسناً أيمكن أن تبتسمي؟  
منحني ابتسامة جذابة وهو يقولها فابتسمت، وأدركت أنني وقعت في حبه دون رجعة.  
وقفت بجانبه يريني الصورة على هاتفه، كنتُ أبدو جميلة فعلاً وحالمة بجوار البيانو، وابتسامة  
الحب على وجهي.

- أتأكدت أنك لا تشبهين إلا نفسك؟  
نظرت لعيني، تقاجأت من فهمه لي، وكنمتُ رغبة مفاجئة في البكاء، أمسك ذقني برقة يهمس:  
- أنتِ أجمل من رأيت يا ليلي، لا يمكن لأحد أن يراك ولا يحبك، كيف لا تدركين ذلك؟  
انفجرت الكلمات من قلبي أشعر أن الدنيا كلها اختصرت فيه:  
- لأن.. لأنه لم يحبني أحد من قبل يا سليم! حتى أبي، كنتُ دوماً فرداً زائداً في كل مكان أذهب  
إليه، فرداً يبقى ويرحل دون افتقاد.. دون وحشة، طوال عمري لا أعرف.. لا أجد شخصاً يخصني  
وحدي، شخص يفتقدني حين أبتعد، طوال عمري.. حتى عرفتك أنتِ.  
مرّ صراع قصير على وجهه قبل أن يضمّني إليه، كنتُ مرتبكة.. مرتجفة.. لا أقوى أن أبتعد  
عنه رغم كل التحذيرات التي أطلقها عقلي. فقد كنتُ محبوبة.. ربما لأول مرة محبوبة.

- ليلي.. ليلي! أكاد أجنُّ بك يا ليلي!  
همس ووجهه في شعري ثم عنقي، ارتجفت أكثر وشعرت بأني مُخدرة، أعشق الطريقة التي  
ينطق فيها اسمي، أدوب من المشاعر التي يحملها كل حرف في «ليلي» وهو يغادر فمه.  
أمسك وجهي ينظر لعيني.. ينظر لروحي ويهمس:  
- أهكذا يكون عناق الملائكة؟ أو من بأني لو بقيتُ أكثر في حضنك؛ لتحولتُ مثلك.. لشعاعٍ  
صافٍ من النور.

- سليم..  
- أنتِ أجمل يقين في حياتي يا ليلي!  
اختنق صوتي من الحب والدموع ومشاعر شتى متوهجة، كنتُ أضعف وربما أصغر من أن  
أتحملها، لم يسلبني قلبي فقط حينها بل ملك كياني كله، عرفت حينها طعم الحب ولونه، عرفت إنه  
يستبدل ثقل الروح بطاقة هائلة.. من الخفة.

\* \* \*

ليلي!  
صاحت جدتي فأجفلتُ قبل أن تتابع:

- عيناكِ والشمس يا ليلي!

أخذتني من شرودي ونظري السارح للشرفة، فضحكتُ وملتُ عليها أُقبلُ خدّها بمحبة.  
- لا أمزح، التحديق في الشمس يؤذي العين، منذ أن كنتِ صغيرة تتسين نفسك، تنبهر عيناكِ  
بالضوء وتحديقين بها حتى يباغتك الألم، وتظلين تبكين إلى أن تزول الغمامة البيضاء وتعود عيناكِ  
لطبيعتهما.

قلتُ بمرح:

- لكنني لم أعد طفلة الآن!

- هذا ما أحاول أن أذكرك به.

ضحكتُ ثانية وقلبي عامر بالحب والسعادة، راقبت المفرش الحريري ناصع البياض الذي  
تطرزه بصبر، وأنا بجانبها أناولها حبات الخرز، نادرًا ما تتركني أشاركها العمل على نفس القطعة  
رغم أنني تعلمتُ منها الكثير، لكنها تحب أن تُتِم عملها بنفسها للنهاية.  
تمنيتُ أكثر من أي وقت أن أخبرها عن سليم، لكنني كنتُ أعرف أنها تشعر بالنور المطل من  
قلبي دون أن أنطق بشيء.

مرّت الأيام التالية كحكاية خرافية، لم أحلم أن أعيشها، يمطرني سليم برسائل صغيرة مطوية  
كل مرة فيها اقتباسات من كُتب وأشعار يحبها، احتفظت بهم في علبة مجوهراتي كأعلى كنز،  
أقرأهم مرارًا كأنني أسمع صوته، أسمع وهو يمسك يدي بين يديه ويهمس لعيني بشعر مجنون  
ليلى، وأخجل أن أخبره أنني أنا المجنونة به.

مرّت الأيام بسرعة وتخرجت بالجامعة، مع استمراري في التدرّب في شركة سليم، كنتُ  
أنتظره أن يفتح أبي بشأن ارتباطنا، وكان قد وعدني بكل الطرق والتعبيرات دون كلمات مباشرة.  
كذبتُ نفسي حين شعرت بتغيّر مباحث فيه، ثم قفقتُ عليه، تباعدت صباحات حوض السباحة،  
وأمسيات البيانو، ثم تغيّب أسبوعًا كاملًا عن الشركة، بالكاد يردُّ على اتصالي بكلمات معدودة،  
كدت أطرق بابه مليون مرة والخجل والخوف منعاني.

«لا أظن أن ثمة امرأة، حتى في عالم الحكايات الأسطورية، قد حورب من أجلها كما حاربت  
من أجلكِ في داخلي، منذ البداية وربما إلى الأبد».

أقرأ آخر رسائله الصغيرة مائة مرة، وأفكر فيما تعنيه كلمات «كافكا» التي يهواها، أتذكر لقاءنا  
الأخير الخاطف وعينيه المتوترتين، المتقلتين بهمّ الجمني.. أذهلني، واعتذار حارّ مع وعد بقاء  
آخر قريب، ماذا حدث يا سليم؟ ماذا تعني؟

بدأت أفكاري تتقلني، والقلق يجد مكانه بسهولة داخلي، يزيح غشاءً مُحببًا عن حدس طالما  
روادني، أن سليم يُخفي عني الكثير. وكأنها الغمامة البيضاء التي أخبرتني عنها جدتي، وكأنه نفس  
ألم اكتشاف وجودها قبل أن تبدأ في التبدد.

التقيت ميار وأخذت تثرثر دون أن أستطيع التفاعل معها كالمعتاد، أراقبها تتحدث، ثم تتوقف عند كل محل نمر به تبدي إعجابًا بالغًا بأغراض متنوعة، لكن الفتور الذي ملأني مؤخرًا تسلل فجأة لـرغبتني في منحها الهدايا، وانقضت غيمة مختلفة لم أكن أدرك وجودها إلا بتبديدها، لم تمنحني ابتسامة الغرباء، لكن تسلطت دائرة ضوء مباغته فوق علاقتنا، فرأيت الفجوات التي تملأها، الود الزائف، والتصنع القبيح، أتساءل لم كنت أفعل ذلك طوال الوقت؟ وفاجأني أنني أعرف.. كنت أعني ما فعله طوال الوقت، لكن لا أريد أن أراه.  
توقفت هاتفةً فجأة:

- آه.. لقد نسيت أن أخبرك! عبير ستعود لشقتها الأسبوع القادم! قالت إن سليم أقنعها أخيرًا!  
تسمرت قدماي في الأرض:

- سليم؟!!

- نعم سليم زوجها في الشقة المقابلة لكم، ألم تريه أبدأ؟ فقد بقي في الشقة غاضبًا منها رافضًا العودة ليعيشا في فيلا والدها، حتى تصالحا أخيرًا! المهم أين سنتغدى اليوم؟  
رددت لا أستطيع منع نفسي وألم خانق يقبض روعي:

- سليم!

توقفت، حدقت بي بشك:

- نعم، ماذا بك؟ أتعرفينه؟

لا أعرف ماذا بدا على وجهي، ولا لماذا لم أنحز لأمل أنه مجرد تشابه أسماء، كنت أشعر طوال الوقت بوجود خطأ ما وكذبت حدسي، كنت أتعس مخلوقة على الأرض، لكنني على الأقل تمكنت من النطق:

- لا.. لا أعرفه.

رمقتني بنظرة باردة، وعرفت أنها لم تُصدّقني.

فسد بقية اليوم، غادرنا سريعًا، كل منا تتابع صمتها ورببتها، وبتهور لم أعرف كيف جاءني اتجهت للشقة المقابلة في الدور، طرقت بابها بقوة، أخذت أدق بكلتا يدي وجسدي يرتعش، وأنفاسي تتحسرج بدموعي، لم أتوقف حتى كدت أدمي يدي، ثم انهرت، استندت للحائط بجوار الباب والدموع تتدفق من جسدي وتغمر كل شيء.

كم كنت غبية وأصدّق في كل مرة أجده في طابقي أنه أتى لاصطحابي منساقًا لتهوره ورغبته في رؤيتي! كيف أقنعت نفسي بأنه لا بد الساكن الجديد في الشقة الخالية بالطابق الأخير! فقد كان تصديق أي كذبة ساذجة أهون كثيرًا من مجرد الشك في أنه الزوج الغاضب الذي أخبرتني عنه ميار!

بقيت أكثر من ساعة أنتظر بجوار الباب، أفند كل حياتي من جديد، أضعها في دائرة الضوء،

كل علاقاتي الفاشلة، وكل وجودي الهش، المزيف!

فما الذي يجعل وجود أي منا حقيقيًا إلا انعكاس هذا الوجود فيمن حوله؟ وأنا لا أحد حولي أبي..  
أمي.. عمتي.. جينا.. ميار.. سليم! كلهم لا يعني وجودي لهم أي شيء! لطالما كنت شخصًا مؤقتًا،  
بإقامة مؤقتة، ووجود مؤقت! لم أنل منهم طوال حياتي سوى ألم التعلُّق وخيبة القلب ووجع  
الخدلان.

حتى سليم! شمسي الزائفة التي أعمتني، وأبهرتني فلم أرَ سواها، لم أرَ سوى أمل المحبة التي  
أتوق إليها، لم أعرف أنني عندما أفق تحت دائرة ضوء حقيقية؛ لن أجده ولن أجدني، لن أرى  
سوى سرب من غبار لا قيمة له.

انتبهتُ لصوت المصعد، ثم رأيته قادمًا، كانت دموعي قد جفَّت، ويبس جسدي مع مشاعري،  
وقفت جامدة أحرق به والاضطراب والقلق على وجهه، تباطأت خطواته، ثم عاد يقترب مني.

- جبان.. أنت جبان! لم تجرؤ أن تُخبرني بنفسك يا جبان!

صحتُ به وطعم الرماد في فمي، قال بوجه شاحب وكلمات ثقيلة:

- لم أكن أنوي خداعك.. كنا منفصلين حينما التقيتُ بك، وبعد الطلاق كنتُ سأخبرك بكل شيء،

لكن.. تغيَّرت الظروف، لن يكون هناك.. طلاق.

شعرتُ بأنني سأنهار ثانية، أنني لن أستطيع التماسك أكثر من هذا وهو يعترف ويؤكد لي!

- لماذا فعلت بي هذا؟ لماذا؟!

- أنا آسف.. كل هذا خطأي.. ليس لك ذنب.

حدَّق بعيني يقرُّ بحزن وكان هذا سيواسيني! انسابت دموعي، واختنقت كلماتي، هرعت أجري

على السلام لا أرى أمامي.

ليلي!

هتف خلفي بلوعة، لكنني كرهته، وكرهت اسمي منه، وكرهت نفسي أكثر من أي شيء.

\* \* \*

توقفتُ في الإشارة، أنظر للمرأة متنهدةً فواجهتني عيناها الغارقتان في القلق والتفكير، ثم التفت

نظراتي بعيون سلمى المتدمرة في المقعد الخلفي للسيارة، قبل أن أحول نظري لسوزي الجالسة

بجوارى بملامح عابسة، ثلاثة أزواج من العيون الخضراء المحبطة تحرق بي من كل اتجاه.

- ماذا سنفعل الآن؟ المقابلة لم تفدنا بشيء! المديرية مُصرَّة أن تُضيع مستقبل البنت للحفاظ على

سُمة المدرسة!

قالت سوزي وأنا أوصل القيادة بصمت في طريق عودتنا من المدرسة ولقاء المديرية المحبط،

التفتت سوزي بغيظ لسلمى تقرصها في فخذاها متابعَةً:

- ماذا جرى لعقلك! أترين المصائب التي نحن فيها بسببك!

- ماما!

صحتُ بتوتر أحاول التركيز في الطريق، وفي رأسي معترك من الأفكار والأسئلة، لم يُبشِّر اللقاء بأي خير! وربما عليّ أن أصدق أننا في ورطة كبيرة!

لماذا يا سلمى؟ لماذا يا حبيبتي؟ كيف وصلنا لهذا الوضع؟! هل هو ذنبي؟ غلطتي؟ أتعيش ابنتي كل ما رفضته؛ لأنني أسأت اختيار الحياة لنا؟ لأنني تهربت طويلاً من مواجهة مخاوفي؟ أيمن أن تكون هناك حياة أفضل لنا ولم أنجح في تحقيقها؟

«الخوف يدمر كل شيء يا ليلي، يسجنك في مخاوفك ويقودك لتحقيقها دون أن تشعرى».

سليم.. رغم كل ما حدث لم أنسَ حرقاً مما قاله لي، ربما كان هو السبب في كل ما عانيته.. وربما سيظل أجمل حلم عشته.

سنتزل كلماته أمني الوحيد للنجاة، للخروج من كل هذا وبدء صفحة جديدة كلما ضاقت صفحتي الحاضرة واسودت.

رأيت في المرأة الأمامية سلمى وهي تدفع يد سوزي بقوة، فضربتها سوزي بيدها الأخرى قائلة:

- بنت قليلة التربية! لا ينقصك إلا أن تضربيني أنا أيضاً!

رنَّ هاتف سوزي فاعتدلتُ في مقعدها لتجيبه بتعبيرات قلقة، وأغلقتُ صوت دندنة أم كلثوم المنسية في كاسيت السيارة، لم تتحدث كثيراً، لكنني فهمت كل شيء.

- أنا لا أريد أن أعيش معك! أنا لا أحبك!

هتقت سلمى فجأة لتتفعل سوزي بعنف:

- غبية لا تفهمين شيئاً!

والتفتت بنصف جسدها تصفع ما تطاله يدها من جسد سلمى؛ التي تقاومها بغضب كبير.

- سوزي أرجوك! سلمى توقفي!

مددتُ يدي أحاول إعادة سوزي لمقعدها، فدفعتني بعصية، نظرتُ لسلمى لثوانٍ أنهرها وأحاول النظر لعينيها لتهدأ، لكنها استمرت في الشجار مع سوزي بعناد طفولي، امتلأ ذهني بكل القرارات الجديدة التي كان عليّ أخذها، والأبواب التي يجب أن تُغلق والخطوات التي يجب أن تُحسم، فعليّ إعادة تقييمي لكل شيء، وما أن ركزتُ انتباهي للطريق مجدداً حتى وجدت السيارة دخلت في طريق عكسي وشاحنة كبيرة تتجه نحونا بسرعة..

توقف الزمن..

ومرّت كل حياتي أمام عينيّ في لحظات بدت لا نهائية.

## قبل عامين من الحادث..

استيقظتُ على أصوات غريبة في هذا الوقت من الليل، غادرتُ الفراش ومكان ليلى الخالي بجواري يزيد قلقي، مشيتُ أغلب النعاس حتى وصلت المطبخ، وتوقفت مذهولاً.

- ماذا تفعلين يا ليلى؟!

انتفضتُ بعد أن كانت منهمكةً في دعك دولااب المطبخ، والتفتت إليّ تردُّ بصوت مرتعش:

- أنظف.

- الآن؟!

- قمتُ أشرب، فوجدت المكان متسخاً.. القذارة في كل مكان! القذارة تغطي كل شيء! رمقتها بقلق، كانت الدموع تلمع في عينيها وانفعالها مبالغ فيه، لم تبد طبيعية، وهوسها بالتنظيف مؤخراً أصبح مريباً ومريضاً!

- تعالي لتنامي وأكملي ما تفعلينه في الصباح.

- لا، نم أنت.. لن أتأخر.. لا يمكنني ترك المكان هكذا.

وتابعت التنظيف بتركيز وهمة.

في الأيام التالية ازداد الأمر سوءاً، امتلأ جسدها بخدوش وكدمات نتيجة تنظيفها العنيف لنفسها ولكل شيء!

تمنيتُ لو تذهب لوالدها فترة كما اعتادت؛ لأنني لا أعرف كيف أتعامل معها الآن، لكن منذ مرضه الأخير وأخوها وليد وزوجته هناك باستمرار ويضايقانها دومًا فكرهتُ الذهاب هي وسلمى، لم أعرف ماذا أفعل، فأخذت استشارات متواصلة من أبي، فهو طبيب قديم ولا بد أنه يفهم هذه الأمور.

اتصلت بي سوزي كالمعتاد تسألني:

- ما أخبار ليلى؟ ماذا فعلت؟

سوزي من أقرب أصدقائي منذ سنوات طويلة، ولم أفهم أبداً كيف لا تحبها ليلى وتقدر حبها لها.

- لن تصدقي! أبي أخبرني بأنها أعراض وسواس قهري، وأعطاني دواء لها باستشارة صديقه،

قال إنها ستتحسن بسرعة، لكنني أشعر بالذعر، ولا أفهم ماذا حدث لها!

- وسواس قهري! من أين أتى لها هذا؟!

- لا أعرف.. لا أحد يعرف.

- وهل تحسنت؟

- ليس كثيراً.. هي غريبة منذ فترة.

صمتت بعض الوقت، ثم قالت:

- ساتي لرؤيتها.

- البيت بينك يا سوزي.

أغلقت المكالمة وتفقدت المنزل دون حماس، يبدو لا بأس به، وسوزي ليست غريبة، كانت سلمى في غرفتها تأكل الحلوى، وتشاهد شيئاً ما على «التابلت» الخاص بها، فاطمأننت عليها وعدت لغرفة نومي، أتفقد ليلي.. منذ ليلة أمس وأصابها دور برد شديد، فقد كانت منهكة في تنظيف المنزل وملابسها كلها مبنلة دون أن تبالي، وما أن نامت حتى بدأت حرارتها في الارتفاع، سألت أبي وأعطاني اسم أقرص خافضة طلبتها لها وأخذتها، لكن يبدو أن مفعولها لم يبدأ بعد.

لا أدري كيف تحولت حياتي لهذه الكآبة، منذ عدة شهور وليلي مختلفة.. غير طبيعية، بعد أن كانت صمام الأمان لكل شيء، أسعى وراء حلمي معتمداً عليها في إدارة المنزل وحياتنا وابنتنا وكل شيء، تحولت فجأة.. تبدلت.. ووقع كل ذلك على عاتقي وحدي.

تصاعد صوت الجرس فأسرعت أستقبل سوزي، ربتت على كتفي مواسيةً قبل أن تتجه مباشرة لغرفة ليلي، مسحت وجهها، وفحصت حرارتها بيدها، ثم عبست بقلق، فقلت:

- أعطيتها خافضاً للحرارة، لا تقلقي.

نظرت لابنتها بحيرة وأسى وسألنتي:

- ماذا بها يا هشام؟ ماذا حدث لها؟

- لا أعرف، فقط كما أخبرتك.

- والمحروس أبوها لا يسأل عنها؟

- اتصل مرة فأخبرته بأنها متعبة، ولم يتصل مجدداً.

- أين سلمى؟

- في غرفتها، تعالي.

نهضت معي تسلم على سلمى التي استقبلتها بفتور، فعلقت سوزي ساخرة:

- وكأنها ستصبح نسخة من أمها.

قرصت خد الصغيرة مداعبة وهي تقول لي:

- وزنها بدأ يزداد بشكل ملحوظ، لا تعطها الكثير من الحلوى.

رمقتها سلمى معترضة بتذمر، فضحكنا وأخذت سوزي للصالة:

- لا ترضى أن تأكل غيرها، تستغلُّ تعب ليلي، وليس لي صبر على إقناعها.

وقفت أمامي وقالت بجد:

- اعتنِ ليلي يا إتش.. إنها غالية عندي.

هزرتُ رأسي بتعاطف وقلت:

- وعندي يا سوزي.. لا تقلقي.

ربتت على وجهي بابتسامة صغيرة قبل أن تنصرف بخطوات رشيقة، تلك المرأة لا يبدو عليها أثر العمر أبدًا، رغم أنها في منتصف الخمسينات، وليلى تصر أنها بلغت الستين بالفعل، لكن تبدو كأى امرأة جميلة في الأربعينات، مليئة بالحيوية والدفء.

عُدت لليلى أتفقد حرارتها، كانت ترتعش، ولم يبد أنها تتحسن.. جلست بجوارها أمسح جبينها وشعرها بحزن، قبل أن أضع خدي على جبينها وأهمس:

- عودي بخير يا ليلي.. لا أعرف ماذا أفعل من دونك.

- سليم..

لم أستوعب في البداية همسها المُعذَّب كالأنين، ابتعدتُ بحدّة أنظر إليها، أنتظر أن تُكرر ما قالته.. لكنها لم تتطرق ثانية.. قالت سلمى.. أم سليم؟!!

- ليلي! ليلي!

لم تردّ، لا بد أنها قالت سلمى وأنا لم أسمع جيدًا..

ضربتني السخرية كالصاعقة.. سليم.. سلمى! كل ما يحدث مؤخرًا غير طبيعي، خاصة تهزّبها من أقل لمسة مني! حتى شككتُ للحظة.. لحظة فقط أنه قد يكون دخل حياتها غيري وليس مجرد تعب أو اكتئاب أو عبث هرمونات كما أسمع، لكن لم أستطع التصديق.. وانتهت لحظة الشك! فما الذي أعادها بقوة الآن.. ما الذي يجعلني سأجن فجأة وأنا أتساءل كيف لم أرْتب طوال هذا الوقت في هذا الاشتقاق! في هذه الخيانة!

«سنسميها سلمى يا هشام.. أبي اختار الاسم.. وأحببته».

«والمرة القادمة نسمي الولد عُمر، عمر وسلمى! هههههه».

هكذا ببساطة ابتلعتُ الطعم وصدقت.. سلمى اسم دارج ومشهور، لماذا لا أصدّق!

خرجت للصالة أشعل سيجارة بعصبية، وتفكيرى مشتت يدور، سليم كان هنا في إجازة منذ شهور قليلة، قابلته صدفةً وأنا أزور حماي ولم يبد مُرحّبًا كثيرًا برويتي، استغربته ثم سرعان ما نسيت الأمر، لكن عليّ الآن أن أراجع كل ما حدث الشهور الأخيرة.. فلا بد من سر وراء تغييرها! أعود بذاكراتي أحد عشر عامًا.. عندما رأيتها تعمل عنده، لكن لم أشك أبدًا، لم يكن سليم من النوع اللعوب، أو هذا ما بدا لي، وهي صغيرة بريئة لا يبدو أنها من النوع الذي يكون على علاقة برجل متزوج، فلاحقتها.. حاصرتها.. ففتنتني براءتها.. رقتها.. جمالها الخلاب، لم أكن لأسمح أن تضع مني، أردتها وأخذتها، تزوجنا بلح البصر، فبعض الفرص إن لم تؤخذ فورًا لا تؤخذ أبدًا!

وهي منحنتي كل شيء، طيبة، مطيعة، دافئة العواطف، حتى لو في الظلام الذي تصرّ عليه.

كيف كنتُ أعمى لهذا الحد؟ كيف لم أر رجلاً آخر في عينيها؟

ما حدود علاقتهم؟ ومتى وأين؟ انقطعت صلتى به تقريبًا منذ زواجي، اللهم إلا لقاءات الصدفة

في بناية حماي، ثم سافر، ولم ينزل سوى إجازات قصيرة، فلم أكد أراه في إجازته الأخيرة، وهي قضتها كلها تقريبًا عند أبيها.. بجواره! وعادت مُختلفة، غير طبيعية، تغيرت تجاهي دون أن أفهم السبب! والآن فهمت!

المجرم الخائن! يعيش هانئًا في أمريكا! ويأتي هنا لسرقة زوجتي وإفساد حياتي!  
لا! لا يمكن! ما هذا التخريف؟ لا بد أنني أبالغ في الوهم.. أنا متوتر.. نعم متوتر..  
فقط لو أتأكد.. قالت سلمى أم سليم!؟  
توجهت فجأة لغرفة سلمى.

- سلمى.. أريد أن أسألك عن شيء.  
لم تُعِرني اهتمامًا وهي تشاهد مسلسلها الكارتوني المفضل، فأخذت طبق الحلوى منها، وقلتُ بصراحة:

- ركزي معي.

نظرت لي باستياء.

- عندما كنتما أنت وماما عند جدك، هل رأيتما أونكل سليم هناك؟

أومأت برأسها أن «نعم».

- هل كنتما تخرجان معه؟ وانطقي!

- ركبنا سيارته مرة.

- وأين ذهبتم؟

- للمنزل.

- منزل من؟ هل ذهبتما إلى شقته؟

- أنا لم أذهب لشقته، لكن مامي ذهبت.

تجمّد دمي..

- وكيف عرفت أن مامي ذهبت لشفقة.. أونكل سليم؟

تنهدت بملل وقالت:

- كنت أبحث عنها لنطلب العشاء، فرأيته تخرج منها، لماذا لا تسأل مامي؟ أما انت متعبة؟

بقيت مسمرًا مكاني، فسحبت مني طبق الحلوى بحذر، وتابعت مسلسلها.

\* \* \*

منذ خمس سنوات..

- لولا حبيبتي تأخرنا.

خرجت في الصلاة وهي تمشط شعر سلمى، وتقول كالعادة:

- لماذا يجب أن نذهب معك؟ أخبرتك مليون مرة أنني لا أحب أي شيء له علاقة بالفن.

- بأمانة الأغاني التي تسمعونها طوال اليوم! هههه! الفن يجري في دمك لا تتكري، تعالي يا لولاً من أجل إتش حبيبك، أيهون عليكِ تفويت أول عرض للمسرحية؟ والصحافة والمصورون حينما يسألونني عنك أنتِ ولولو ماذا أقول؟

رمقتني بنظرة تتأرجح بين نفاذ الصبر والسخرية وغادرنا كلنا معاً. لمحت من مكاني على المسرح أنها قضت وقت العرض كله تقريباً ما بين الذهاب للحمام بسلمى، أو الوقوف بها خارجاً حينما تصر على الغناء فجأة وهي تأكل الساندويتشات التي حضرتهما لها، ويتردد صدى صوتها في المسرح الفارغ تقريباً إلا من عدد محدود.

لكن في طريق العودة كان عليّ أن أتظاهر بالمرح والسعادة:  
- الحضور لم يكن كما توقعت، لكنه أفضل كثيراً من العرض الماضي.  
- صحيح.

- كان هناك صحفي في الصف الأول، هل رأيته؟  
- نعم.

- لكن العرض كان رائعاً، أليس كذلك؟  
- صحيح.

- هذا يحدث لأي نجم في بداية مشواره، عادل إمام نفسه؛ أتظنينه أصبح النجم الأول بسهولة؟ ظل أكثر من عشر سنوات في الفرق المسرحية، مسرحيات كالتي أمثلها، ورغم ظهوره الناجح مع العظيم فؤاد المهندس في «هو وهي» إلا أنه لم يثبت نجوميته إلا في مسرحية «مدرسة المشاغبيين»، فُتحت له أبواب السينما وأصبح نجم الشباك الأول. الطريق ليس سهلاً ويحتاج لصبر ووقت، لكن الفرصة ستأتي، حتماً ستأتي في الوقت المناسب.  
غمغمتُ:

- طبعاً، بالتأكيد.

وبقينا صامتتين حتى وصلنا المنزل، كانت سلمى قد نامت، فوضعتها في فراشها، وما أن دخلت غرفة نومنا حتى أخذتها بقوة بين ذراعيّ.

- أحبك يا ليلي، ابقى بجانبى، ابقى معي دوماً لا تتركيني.

تنهدت وربنت عليّ تعدي:

- أنا معك يا هشام، معك.

أغلقتُ النور كما اعتدنا، لنتحوّل لشخصيات أخرى في الظلام، تبوح بما لا تتطرق به في النهار.

\* \* \*

مددتُ يدي أتناول الكأس الذي أمامي، فأخذته سوزي مني بخفة وتقول:

- إتش.. هذا ثقيل عليكِ.

نفخت بقوة، وكل صخب وهرج الكازينو حولي لا يسرّي عني.

- أنا مخنوق يا سوزي مخنوق! لا جدوى من أي شيء!

- اصبر أنت ما زلت صغيراً والطريق ليس سهلاً.

- هذا لو بدأ الطريق أصلاً! لكنه لا يريد أن يبدأ، وحتى منتجك رفض الفيلم! مللت! سئمت

المسرح الخاوي والتمثيل لنفسي! من نظرات ليلي التي تتهمني بالفشل مع كل عرض جديد! أريد

فرصة يا سوزي! فرصة واحدة حقيقية لأثبت للجميع أنني على حق!

هزت كتفيها العاريين في ثوبها الفاتن وقالت:

- ليلي فتاة عاقلة.. وتحبك، لا تقلق منها.

وأشعلت سيجارة تتابع:

- أما الفرصة فستأتي بلا شك، سأفعل كل ما أقدر عليه لأجلك.

قلت بامتنان وأنا أمسك يدها الخالية بين يدي بحرارة:

- وجودك نعمة في حياتي يا سوزي.

وتمنيت أن أرى من ليلي الدعم الذي تقدمه لي سوزي.

بعد أيام ذهبت لأبي أفنعه للمرة المليون بموضوع خلافنا الدائم، لا أعرف لماذا لا نستطيع

التوصل لتفاهم بيننا، درست الطب مُجبراً لأجله، لأجل أن يتباهي بابنه الطبيب مثله، فلا يمكن أن

أحيد عن تقاليد عائلة الأطباء المعروفة! أفلا يُقدّر ذلك ويتركني أعمل ما أحب بعدما درست ما

يحب هو؟!!

- أخبرتك يا هشام أنني لا أستطيع أن أضع كل ما أملك في إنتاج فيلم أو حتى مشاركة في

إنتاج! إنه أمر يتكلف عشرات الملايين، وليس مائة أو مائتي ألف أعطيم لك.

كرر ردّه المعتاد، نظرت لي أمي بتعاطف، وجلست بجواري على الأريكة الحريريّة قانية

الحُمرة، فقد جدت أثاث المنزل كله منذ أسابيع، ليزداد المنزل أناقة وفخامة، وعندما أطلب أنا

المال يرفض أبي، وتدّعي أمي أن ليس معها ما يكفي!

- إذن يرضيك أن أستمّر هكذا؟ يرضيك؟

رمقني بصرامة وقال:

- عليك إعادة تقييم حياتك إذا وجدت الفشل يطاردك فيما تظن أنك تريده.

امتنع وجهي:

- فشل؟! شكراً يا أبي!

قالت أمي بسرعة تربت على يدي:

- لا يا حبيبي، والدك لا يقصد.

- بل أقصد! لم يفسده إلا تدليك له!

نكست أمي بأسى، فحذق بي بقسوة متابعًا:

- أنت طبيب يا هشام طبيب! يجب أن تتذكر ذلك!

- يحيى الفخراني ترك الطب واحترف التمثيل! باسم يوسف كسر الدنيا ببرنامجه وهو طبيب!

وغيرهما الكثير! لست أول من يفعل ذلك من أجل الفن!

- لا فائدة فيك.. لا فائدة!

نهضتُ غاضبًا أغادر المنزل وأمي تحاول اللحاق بي وإرضائي، لكنني أصررت على الرحيل. قدتُ سيارتي بانفعال أتوقف عند كورنيش المعادي، كما اعتدت منذ صباي كلما ضاقت نفسي، حدقتُ بآخر ظلال الغروب البرتقالية على سطح الماء، كبقايا خيوط الأمل داخلي، لا.. لستُ فاشلاً، لكن الفرصة الحقيقية لم تأتِ بعد، أنا ممثل ناجح ولديّ جمهور ومعجبون ولو عدد محدود، لكن كلهم يعترفون بموهبتي، يصيحون «برافو! رائع! عظيم!» بعد كل عرض، ويخبرونني بأنني موهبة متميزة، كلهم يقدرون موهبتي.. ويشيدون بها، فقط لو تأتت الفرصة.

\* \* \*

لسنوات عديدة ظلت سوزي أقرب أصدقائي، نتحدث ونسهر معًا في مكاننا المعتاد، فوحدها من تفهم ما أمرُّ به وتستوعب إصراري وطموحي طوال هذه السنوات، لكنها بدت هذه المرة متوترة كما لم أرها يومًا، كنتُ أعرف السبب وانتظرت أن تتحدث هي.

- هل كان سببًا لهذا الحد؟ أقصد تصوير الأغنية!

كتمتُ ابتسامتي، أه يا سوزي لقد تجاوزتِ الحدود بكثير!

كانت من الأوقات التي لا تستطيع أن تمنح فيها رأيًا صريحًا، لا تريد أن تُزيد من جرح سائلك، وفي نفس الوقت تدري أنه يعرف إجابة سؤاله، ولن يصدق كذبك اللطيف. أكملتُ لا تنتظر ردي:

- المُخرج الغبي هو من ظل يردد لدي رؤية وزفت على دماغه! وفي النهاية خرج التصوير بهذا الشكل!

أشعلت سيجارة، وأخذت عدة أنفاس قبل أن تتابع متهكمة:

- أتعلم من يهمني في كل هذا؟ لن تصدق! ليلي.. ليلي هانم! لن أستطيع النظر في وجهها، ولن تسمح لي بالاقتراب من حفيدتي مرة أخرى.

- لا تكبّري الأمر، ليس لهذا الحد، ليلي طيبة جدًّا، وسأصلح بينكما، اعتمدي عليّ. ضحكت ساخرة:

- طيبة صحيح، لكن تظن نفسها ملاكًا لا يخطئ! كلما رأيتني ترمي في وجهي كلمات الأخلاق

والمبادئ كأنها صاحبة التوكيل الحصري لها! من يدري.. ربما هي فعلاً ملاك وكلنا شياطين!

- دعك من ليلي، المهم الجمهور، الجمهور ليس له أمان أبدًا، إما أن يرفعك لسابع سماء أو

يخسف بك سابع أرض!  
- طريق الفن ليس سهلاً كما يظن الجميع، رأيت بنفسك.. البعض لديهم كل الحظ معه، والبعض  
مثلك لا يراه الحظ أصلاً!  
انزعجتُ من كلامها، هل تقصد إخباري بأن أتوقف عن المحاولة؟ أنني لستُ موهوباً؟ أصدقتُ  
أنها فنانة بحق؟

تناولتُ كأسها، لم أكن أحصي، لكنها تناولت الكثير، فقلت أمسك يدها فوق الكأس:  
- يكفي هذا يا سوزي.

رمقتني بتحدٍ.. بنظرة عابثة مثيرة وقالت:  
- أنا من يعطي الأوامر يا إتش وليس أنت.  
وأبعدت يدي بخفة لتشرب.

\* \* \*

«برافو.. رائع.. عظيم!»

انحنيتُ أحبي الجمهور بابتسامة عريضة زائفة، أمام عدد لا يتجاوز الثلاثين فرداً، وجملة ليلي  
الغاضبة في شجارنا الأخير تعلو على صوت التصفيق:

«كرهت حياة التسول معك يا هشام!»

«تسول!» تسمي مصروفي من أبي.. حقي في ثروته «تسول!» هزني الغضب حتى أمسكت  
ذراعها بعنف لأول مرة، قبل أن أتركها وأغادر البيت كله!

ليلي لا تؤمن بي ولم تؤمن أبداً، أعرف أنها حاولت، وكثيراً ما تظاهرت بتشجيعي ودعمي،  
لكنني كنت أرى دوماً في عينيها نظرة تتهمني بالفشل، بالنقصير، بأنني لستُ زوجاً مناسباً ولا أباً  
حقيقياً، حتى تركي لمعهد التمثيل تلومني عليه كأنها تهتم أصلاً، أو لعلها تبحث عن أي سبب  
لتلومني وتثبت لي أنني فاشل!

ذلك الشعور بالاستهانة والاحتقار، هو ما ظل يصلني منها لسنوات وسنوات رغم كل إنكاري  
له، وتجنبي لأي شجار بيننا، حتى بنتا في السنوات الأخيرة لا نتحدث تقريباً، تقضي أغلب الوقت  
عند والدها، وعندما تعود لا يربطنا إلا سلمى، التي تحشوها بالطعام كأنه واجب مقدس، أو لعلها  
تهرب مني بالبقاء في المطبخ، لكن في النهاية يجمعنا فراش واحد، القشة الأخيرة في زواجنا التي  
تجعلنا نصدق إنه زواج طبيعي.

كنتُ أحبها كثيراً، وأراها أجمل من عرفتُ من النساء، فلم يكن الإخلاص الجسدي مشكلة  
بالنسبة لي، لكن نُقْتُ لأشعر بامرأة تُقدّرني.. تُجلّني، تتبهر بي وتؤمن بموهبتي، وكنّ كثيرات، في  
كل عرض جديد ومع كل بطة جديدة أو وجه جديد أضمه للفرقة، كانت الممثلة الناشئة تراني نجماً  
على وشك البروغ، وتتمنى أن تظل بجانبني وتشاركني هذا البروغ.

ضغطت «شهيره» على يدي بعد العرض في الكواليس، تنظر لي بشغف هامسة:  
- كنت رائعا ليلة.

أضفت بحة صوتها مذاقا مثيرا للجملة، جعلني أبتسم لها بدفء أكثر من المعتاد، «شهيره»  
بطلة عرضي الأخير، اختارت هذا الاسم لنفسها جلبا للحظ، ولم تبذل جهدا في إخفاء ولعها بي، لم  
تكن صغيرة؛ في منتصف الثلاثينات وتشبعت من الفرص الهزيلة والتمثيل للمقاعد الخاوية مثلي،  
لعلها كانت تشبهني في كثير من الأمور بفارق مهم جدا أنها تراني نجمها وأستاذها، وكان هذا كل  
ما أحتاجه لأتعلق بها.

بات من عادتنا بعد انتهاء العرض أن نخرج معًا كل ليلة، أحاول اختيار الأماكن التي أعرف أن  
سوزي لا تذهب إليها، وأمضي مع شهيرة سهرة حافلة بكلامي وتجاربي ونصائحي، ونضع معًا  
خططنا القادمة، لم تكن شهيرة فانتة، لكن تتميز بجمال أسمر جذاب، والأهم قوام أكثر جاذبية  
وأثوثة، ترتدي أثوابا رخيصة، قصيرة، مفتوحة الصدر، فتمنح للثوب أهمية إضافية.  
كانت مختلفة بشدة عن ليلى، بل لم أوهم نفسي حتى بالمقارنة بينهما، ليس شكلا فحسب بل  
مضمونا، ومع ذلك كانت تلك الفتاة هي من تشاركني حلمي لا ليلى.

سألنتي في إحدى سهراتنا:

- صحيح سوزي رفعت قريبتك؟  
ضحكت:

- إنها أعز صديقة لي، وحماتي أيضا!  
التمعت عينها مرحا:

- كل هذا ولا تعرفك على معارفها من المخرجين والمنتجين!  
عبست:

- عرفنتي على الكثير بالطبع، ولدي خطط ومشاريع قريبة، لكن لم نعلن عنها بعد، خالد صالح  
الفنان الجميل لم يأخذ فرصته الحقيقية إلا بعد الثلاثين، وأصبح من نجوم الصف الأول رغم رحلته  
القصيرة في الفن.

- أه طبعًا، الله يرحمه.

قالتها وهي تتراجع في كرسيها بنظرة تحمل خبثا ماکرا، ثم غيرنا الموضوع.

لم يكن من عادتنا إقامة حفل عيد ميلاد ليلى، لكنني أصرت هذه المرة لأجد فرصة مناسبة  
لمصالحتها على سوزي، اضطررت لدعوة شهيرة مع بقية الفرقة، أعرف أنها ستأخذ الأمر  
بحساسية إن تجاهلت دعوتها هي على الأخص.

وبقيت أراقبها طوال الوقت؛ خوفاً من أي حديث تفتحه مع ليلى، حتى وقع ما أخشاه، وجدتها  
اختلفت معها في المطبخ، لا أعرف فيما تحدثتا، بدا الأمر طبيعياً عندما لحقتُ بهما، وسألتهما فور أن

غادروا ونزلت معهم لدقائق أمام العمارة.

- ماذا قلت لها؟

تظاهرت بالبراءة لتستفزني:

- من تقصد؟ أه ليلي زوجتك.. لا تقلق ليس بيننا شيء لأقوله لها يا حبيبي!

- شهيرة! إياك أن تكون ألمحت لها بأي شيء! أسمعيني؟ إياك!

لم أنشأ أن أبدو حادًا معها، لكن لم أستطع السيطرة على قلبي متخوفًا من ألامعبيها.

- لماذا تخاف عليها وعلى مشاعرها هكذا! أه هي جميلة فعلاً، لكن أراهنك إن مشاعرها أبرد

من الثلج! أعرف هذا النوع من النساء، مجرد شكل بلا روح.

قاومت رغبة مفاجئة في صفعها، لكن النظرة العنيفة على وجهي جعلتها تتراجع بسرعة كما

يبدو وتقول بلهجة راجية:

- لا تغضب مني يا إيتش، غرتُ منها، رغبًا عني غرت عليك.

قلتُ بجفاء:

- حصل خير، أراك في المسرح.

وعُدت لشقتي يغمرنى الذنب تجاه ليلي.

حاولت شهيرة في اليوم التالي ملاطفتي وإرضائي بإلحاح، وفي النهاية خف غضبي منها،

أعرف أنني الملام وليس هي، وأني من سمحت لها بتجاوز حدود كثيرة معي، دعنتي أكثر من

مرة لبيتها لأسباب تبدو عادية وبريئة، لكنني كنتُ أعرف ما الذي تتوقعه بالضبط بعدما توطدت

علاقتنا بهذا الشكل، كانت تعيش وحدها بعد أن تركت أهلها في دمياط لتحقيق حلمها منذ عشر

سنوات كما تقول، ولم تعد تسأل عليهم ولا هم يسألون، كنتُ أعرف أنها مستعدة لتقديم أي شيء

للوصول للنجومية، وبما أنني لا أملك لها ولا لي مفتاح النجومية؛ عرفت أن مشاعرها نحوي

شخصية وحقيقية لحد كبير، بدأ الإغراء يشدني، خاصة مع خلافاتي المستمرة مع ليلي، وشهيرة لا

تتوقف عن دعوتي بكل السبل.

حتى ذلك اليوم عندما أوصلتها لبيتها آخر الليل، وانفجرت بي بصراحة:

- لا تقل إنك لن تصعد معي الليلة أيضًا!

وقعت في حيرة حقيقية، كانت جميلة ومثيرة، وأشعر بانجذاب حقيقي نحوها، فلم لا تزال خيانة

ليلي ثقيلة على نفسي لهذا الحد؟

لم تطاردني حتى في تلك اللحظات صورتها بأثوابها الحريريّة الملونة، وافتتاني بالحمامة

الرفيعة على كتفها الناعم، يحتضنه شعرها الطويل قبلي ويستفزني لإزاحته، فيغمر ضوء جسدها

حواسي، أتمرر أصابعي على استدارة وجهها البريء، أقبل عينيها المذهلتين، وتنساب شففتاي لكل

ملامحها، فأنسى أن هناك نساءً غيرها في الكون.

«والله ساحرة لك!»

قالت شهيرة ساخرة أمام صمتي وتابعت بحزن:

- ليتني أجد من يحبني كما تحب زوجتك! أم إنني لم أخلق للحب؟ أظن أنني سأجد من يحبني بصدق يا هشام؟ وأصبح زوجة وأمًّا؟ سيدة بيت سعيدة كما نمثل ونرى في الأفلام؟ أم إنني لم أخلق إلا للشقاء والبحث عن لقمة العيش والفرصة التي لا تأتي!

غمرتني مشاعر التعاطف والذنب تجاهها، وابتلعت توتري لأقول بمرح مصطنع:

- دعك من هذه الكآبة، ألم أخبرك إن لديّ غدًا موعد مع منتج كبير؟ لطيف عثمان، لا بد أنك سمعت عنه، ينتج فيلمًا مهمًا، ويبحث عن الأبطال الرئيسيين والثانويين، تعالي معي غدًا، ربما تكون هذه فرصتنا معًا.

أشرق وجهها بقوة سحرية، وهتقت:

- بجد يا هشام! حبيبي يا إتش أنت يا نجم النجوم!

ومالت نحوي تقبل خدي وتحضنني بسعادة، ألعن ضميري الغبي الذي جعلني أقوم بهذه الخطوة الآن!

في اليوم التالي، أطلقت شهيرة كل طاقتها الإغرائية، من ثوب أحمر مثير يُبرز صدرها واستدارة أردافها، إلى مكياج متقن، نظيف، أخبرتني أنه كلفها الكثير عند «ميكب أرتيست» معروفة لتبدو كالنجمات، وبدت فعلاً مذهلة الجمال، وما أن جلسنا مع المنتج حتى لم يعد يرى غيرها، حاول مرة أو اثنتين أن يوجه الحديث لي، لكن ظل اهتمامه معلقاً بشهيرة التي أخذت تمتدحه وتطري على أعماله وهي لم تسمع عنه سوى مني أمس، لكن اكتشفت أنها قامت بعمل بحث عنه على الإنترنت وعرفت كل أعماله، انبهرت مثله وهي تحدثه عن كل عمل منهم، وتبدي ملاحظة أو اثنتين من الملاحظات الفنية المهمة، التي لا بد إنها قرأتها في المقالات النقدية.

لم أكن أعرف من قبل أنها ذكية.. بل ماهرة لهذا الحد، لم تقدّم نفسها باعتبارها ممثلة مغمورة رخيصة بالرغم من ثوبها الفاضح، تركت الثوب يقوم بعمله في غرائز الرجل، وتكفلت هي بعقله؛ بحديثها المرتب الواثق لتستحوذ بالكامل عليه.

انصرفنا معًا دون أن يحصل أحدها على أي وعد، لكن نظرة الانتصار في عينيها كانت أقوى من أن تخفيها، عرفت أنها استغلّنتي.. وكرهتها، خاصة بعد أن انقطعت عن العرض بعدها بأيام، وعرف الجميع أنها ستصبح نجمة حملة إعلانية كبيرة للمنتج لطيف عثمان!

لم يأخذها في فيلمه، لكن صورها ملأت الشوارع والميادين وشاشات التلفزيون، ظهرت بنفس الفكرة، لكن بملابس أعلى، ومكياج أجمل، فكرة المرأة المثيرة، الذكية.

لم أجد غير سوزي لأحكي لها عن الخداع الذي تعرضت له، لم أحك لها عن علاقتي الشخصية بها، لكن فقط عن المعروف الذي قدّمته لها فتكررت لي وتركت العرض، ولم تخبرني بنفسها حتى.

بدا كل المكر في عينيها بعد أن استمعت لي، وقالت:  
- يغضبك أنها تركت العرض فقط، أم لأنها باعته أنت أيضًا وقطعت علاقتها بك؟  
شعرتُ بأنني ورطت نفسي وقلت:  
- كلا بالطبع الأمر ليس شخصيًا، فلم يكن هناك أي علاقة بيني وبينها!  
- يا إتش صارحني، لن أخبر زوجتك لا تخف!  
وأطلقت ضحكة رقيقة عالية، فقلت بغضب وجدية:  
- لا يمكن أن أخون ليلي لو كان هذا ما تظنينه، كل ما في الأمر أنني فعلاً تعاطفت مع شهيرة،  
ولم أدرك أنها كانت تمثل عليّ لتستغلني! هذا ما يغضبني أنني تعرضت للاستغلال!  
سحبت نفساً من سيجارتها مُفكرة وقالت:  
- أليست تلك التي كانت تنظر ليلي بشكل غريب في حفل عيد ميلادها؟ لفتت انتباهي نظراتها  
لك ولها، لا تخفي عني هذه الأمور، وعرفت أن هناك شيئاً بينكما.  
- لا! لم يكن! هي كانت تريد، لكن أنا.. لم أفعل، أه يا سوزي تعرفين كيف تحدث هذه الأشياء،  
يمكنني أن أنجذب لهذه أو لتلك، لكن ليس أكثر من ذلك، لا أستطيع تصوّر نفسي مع امرأة غير  
ليلي!  
- وألا تريدها أن ترد لك الضربة! على أي حال طمأنتني، يبدو أن ليلي أخيراً تجيد شيئاً من  
أمور النساء!  
لم أظن أنني في هذا العمر قد يحمّر وجهي! أطلقت سوزي ضحكة عالية قبل أن تضع يدها على  
ذراعي بتعاطف:  
- لا عليك، انس هذه الفتاة ولا تفكر في الأمر، يحدث هذا كثيرًا في مجالنا، بل في الحياة كلها،  
أظن أن هناك من ألمني بقسوته أكثر من ليلي ابنتي، الملاك! حتى الملائكة يا عزيزي تؤذي دون  
قصد، فما بالك بالشياطين الذين يتقافزون حولنا ويتملقوننا حتى تأتي الفرصة وينقلبوا علينا! لا  
تحزن يا إتش، ستأتيك فرصة أفضل، أنا متأكدة.  
بقيت كلمات سوزي عالقة في ذهني.  
ليلي ملاك؟  
أذكر يومًا في بداية زواجنا دخلتُ غرفتنا، فوجدتها تقف أمام المرأة تلفّ حجابًا حول وجهها  
وتنظر لنفسها بتفكير، قبل أن تلتفت لي تسألني بلهفة:  
- ما رأيك؟ أفكر جدّيًا في الأمر.  
حدقتُ بها ومشاعر عدة تتنازعني بين القبول والرفض ثم قلتُ:  
- لا تتسرعي، لا أظنه مناسبًا للمرحلة التي نحن مقبلون عليها الآن.  
أعادت نظرها للمرأة بإحباط وتردد، وتمتمت بخفوت:

- لن يكون عائقاً في طريقك إن كنت تخشى هذا.  
لم أدر حقيقة ما الذي كنتُ أخشاه، أن تزداد الفجوة بيننا.. بسبب طبيعة عملي وسهراتي، أم إنني أخشى أن تتحول فعلاً لملاك؟

ليلي ملاك!

هذا ما ظننته كل يوم في حياتي معها، والآن أقف أمام فراش ابنتنا النائمة، أتساءل إن كانت ابنتي حقاً، أعدُّ باليوم والساعة تاريخ زواجنا وتاريخ ولادتها، أيمكن أن يكون كل ما عشته مع ليلي خدعة كبيرة؟

سلمى أنت بعد تسعة أشهر وأسبوعين من زواجنا، وهذا ليس دليلاً على شيء، ربما كانت علاقتها به بعد زواجي بها، أو حتى قبله فلا شيء لا يسهل تزييفه الآن.. لا شيء.

كل مرضها الفترة الماضية بسبب ماذا؟ الشعور بالذنب؟ بكأؤها الصامت المتكرر في صلاتها! لماذا؟ هوسها بالتنظيف.. بالقذارة التي تراها في كل مكان.. أهي القذارة التي مارستها معه؟

ليلي خانتني؟ ليلي خائنة.. خائنة!

لكن إن كانت حياتي مع ليلي وهمًا.. وحلم النجومية وهمًا.. فماذا يبقى لي؟

ماذا أكون!

كيف يمكن أن يمضي بي العمر على عجالات زائفة، دون أن أرى، كيف لم ألاحظ.. وكيف لم أوقفه؟ وماذا يفيد الآن أن أرى وأنا لا أملك زراً إعادة العرض!

وفقتُ أنظر لنفسي في المرأة، أتأملني.. أتأمل عمري الفائت في الأوهام. أبعد كل هذا أكون مجرد كومبارس في حياتها لا البطل الأوحدا! البطل الرئيسي؟

لا لن أستطيع مواجهتها، الصدمة أكبر من أن أتحدث عنها، من أن تنهار وتعترف وتؤكد لها لي.. لا أريدها أن تؤكد لها لي.

«سلمى.. أين سلمى؟»

كنا قرب الفجر حينما خرجت فجأة من غرفتها تمسك برأسها متألمة وتحاول النظر حولها.

خرج صوتي ثقيلاً أرد عليها:

- بخير ونائمة، لا تقلقي.

- كم الساعة الآن؟ ربا.. كيف نمتُ كل هذا؟

- كنتِ.. متعبة.

مسحت وجهها ثم نظرت لي بتمعن:

- أنت بخير؟ لماذا لم تتم؟ أكنت بالخارج؟

- لا.

ونفضت أقترب منها، ما رددته الآن سلمى.. قالت سلمى.. ربما أنا الذي لم أسمع جيداً، بالتأكيد

أنا الذي لم أسمع بوضوح.. وسلمى تهذي بكلام فارغ عندما ضغطتُ عليها ولا تفهم شيئاً، بنيتُ  
قصوراً من الوهم بسبب لا شيء.

مسحتُ شعرها بحنان:

- سهرتُ لأعتني بك، كنتِ مريضة جداً.

غمرت الدموع عينيها وهي تنظر لي.. دموع الذنب أم الحب؟

- أنا آسفة يا هشام.. آسفة.

احتضنتها بقوة.. بسرعة، لا أريدها أن تسترسل في الكلام.. لا أريد أن أفهم سبب اعتذارها..

أريد أن أستمر في تصديق أنها ملاك، وأني موهوب.. نجم الشاشات القادم الذي سيعرف  
الجميع تفردَه وعبقريته في التمثيل عندما تأتي الفرصة.

«برافو.. رائع.. عظيم!»

إن كان كل ما نعيشه وهمًا، فلنختَر الوهم الذي نريد.

(سأنام.. سأنام، انتظري يا أحلام حتى أغمض عيني وأغفو بسلام..

سأطير.. سأطير، انتظري يا عصفير في سريري الصغير).

«أخفضي الصوت يا سلمى!»

نظرتُ لبابي منزعةً، وأخفضت صوت مسلسلتي الكارتوني المفضل، البؤساء، أصبح لا يعجبه شيء أبداً، ويصيح بي لأي سبب! ألا يكفيه أن عيد ميلادي العاشر مرّ كئيباً دون احتفال كبير كالعام الماضي؟

أما مامي فباتت تمرض كثيراً، تبكي كثيراً، يتشاجر معها بابي كثيراً، لدرجة أنها لم تعد تشغل أغانيها المعتادة!

في العادة يكون في منزلنا ثلاثة أصوات: أغاني مامي القديمة، ومسرحيات بابي الأبيض وأسود على «اللاب توب»؛ خليط من أصوات ممثلين وضحك الجمهور، ومسلسلاتي أنا!

تملاً البيت هذه الأصوات كل يوم في ترتيب غير منتظم، لم أعرف كم كان هذا المزيج لطيفاً إلا عندما اختفى، واحتل مكانه صمت غريب، بات فيه صوت مسلسلاتي التي أشاهدها وحدي، غريباً أيضاً، فكان عليّ أن أضع السماعات في أذني كي لا يصيح في بابي كما فعل!

جذبني فضولي مرة لأبحث عن أغاني جدتي سوزي رفعت، سوزي التي يحبها بابي ويقول لمامي عنها دوماً إنها لطيفة وتحبنا، ورغم أن مامي لا تهاجمها أمامي، إلا أنني كنت أرى بوضوح أنها لا تحبها.

وجدت الكثير من أغاني سوزي، منهم «يا حبيبي لأ لأ»، وأغنية أخرى وجدت نسبة مشاهداتها عالية جداً، والتعليقات عليها غريبة جداً، كلمات لم أفهمها وكلمات تشتمها بوضوح، فرأيتهما، وأخذت أضحك، بدت لي غبية جداً ومضحكة جداً، أفهم أنها تفعل أشياء «عيب» كما تسميها مامي، لا أعرف كيف يراها أبي لطيفة، كلما رأيته منذ ذلك الوقت وأنا أراها امرأة سخيفة، مبهرجة وكثيرة المكياج كالمهرجين.

ثم حدث ما هو أسوأ من اختفاء الأصوات من بيتنا، عندما أصبحت طرفاً في شجارهما دون أن أدري، كان بابي يصيح بمامي:

- ماذا جرى لك؟! كله من المهدئات والأدوية التي تأخذينها منذ سنوات بلا سؤال ولا طبيب! دمرت نفسك! ستصبحين مجنونة! بتّ تتسين أشياء كثيرة وتتوهمين أموراً أخرى! أنا لن أتحمّل هذا طويلاً.

كان يقول هذا الكلام في كل شجار بينهما، ومامي ساكنة، لا تردّ، تبدو مريضة وخائفة، فأغضب منه، وأتمنى لو أنه لا يقول لها ذلك، حتى ردتّ عليه هذه المرة:

- إذن طَلَّقني يا هشام.

كان معنى الطلاق مبهمًا لي، شيء غامض يحدث في المسلسلات التي أشاهدها، يجعل الجميع تعساء، لهذا ربما بدا بابي مصدومًا وهو ينظر إليها:

- أطلِّقك؟ هذا ما تريدينه إذن، وتسعين إليه طوال الفترة الماضية.

- تقول باستمرار إنك لن تتحملني! فماذا أقول لك بعد كل ما تحملته أنا معك! كيف أردّ عليك بغير هذا لأريحك وأريح نفسي من شجارك المتواصل معي كل يوم وكل ليلة؟!!

راقبتهما مبهوتة بخوف وهو يقترب منها يمسكها من ذراعيها ويهزها:

- لا! بل تريدين الطلاق بسببه! تريدين أن تتركيني لتذهبي له هو! أتظنني لا أفهم! لا أعرف!  
ظلت واقفة مكانها لا تنطق، حتى عندما اندفع نحوي يمسكني ويهزني أنا هذه المرة يصرخ بي

وذعري يتصاعد:

- أخبريها بما قلته لي! أخبريها بأنك رأيتها تخرج من شقته! من شقة سليم!

التصق لساني بفمي ولم أستطع قول أي شيء، أشعر بأن هناك غلطة كبيرة ارتكبتها، ولا أعرف ما هي! أكرهه أو نكل سليم لهذه الدرجة؟

- قولي! انطقي!

هزني مجددًا فهتفت مامي بصوت مرتعش:

- اترك البنات يا هشام، لا تدخلها في هذا الأمر!

تركني وعاد إليها هي كأنه يجب أن يمسك إحدانا ويهزها طوال الوقت، خفت منه، بدا لي أنه هو المجنون وليس مامي كما يقول!

- كنت في شقته أم لا!

- لا!

- لا تكذبي علي! لا تكذبي!

انفجرت مامي في البكاء، فملاّت الدموع عيني، أشعر بأنه ذنبي.. إنه غيائي الذي جعلني أقول لبابي ما يغضبه منها ومني لهذا الحد!

- خائنة! ليلي الملاك خائنة!

تصاعدت شهقات بكائها، ونظرت لي بطرف عينيها بحزن، قبل أن تهمس بصوت ضعيف:

- لا تقل ذلك أمام سلمى.. ادخلي غرفتك يا سلمى أرجوك!

ضحك ضحكة غريبة وقال:

- سلمى/ سليم! سليم/ سلمى! وأنا الغبي المغفل بينكم! أخبريني فقط أخبريني! أهى سلمى هشام

أم سلمى سليم! ردّي!

- لا! لا! كيف تقول هذا! أنت لا تفهم شيئًا!

- احرصى! لا أريد أن أسمع منك أي شيء!

- لستُ خائنة!

- احرصى! قلت لك احرصى!

منذ تلك الليلة وكل شيء تغير، شعرت بأنني السبب في هذه المشكلة، وحاولت أن أفهم أكثر معنى «خائنة» التي فرقت أسرتنا، لكن لم أستوعب سوى أنها غلطتي.

تركنا البيت لنمكث عند جدي، رأيت الدموع في عيني بابي ونحن نغادر، ظننت أنه سيصالح مامي حتى آخر لحظة وهي تجمع ملابسنا، وتضعها في الحقائب، لكن حتى انصرافنا لم يقل شيئاً، فقط بدا حزيناً جداً.

طوال الأشهر التالية كنت أحاول أن أفهم ما المشكلة في أنني رأيت مامي تخرج من شقة أونكل سليم؟ نعم رأيتها، كنت أنتظر عودتها تلك الليلة لنطلب بيتزا للعشاء كما اتفقنا، وسمعت صوت الباب، فعرفت أنها وصلت، طلب مني جدي أن أرى أين هي عندما لم تأت لنا وسمعنا صوت إغلاق الباب من جديد، وجدت هاتفها وحقيبتها داخل المنزل فوق الصالة المجاورة للباب ولم أجدها هي، بحثت عنها في المنزل ثانية، دخلت كل الغرف ولم أجدها، فوقفت أمام باب الشقة أناديها، أفكر أن أبحث عنها بالأسفل، ربما نسيت شيئاً في السيارة، لكن ترددت.. يجب أن أخبر جدي، أخذت أنظر حولي، وأتطلع من شرفة الدور المطلة على الحديقة أناديها، حتى رأيتها تخرج من شقة أونكل سليم، متكررة، باكية، احتضنتني تعذر لي وتخبرني بأنني ملاكها، لم أفهم ما تقصد بالضبط، لكنها لم تكن غاضبة مني، وظننت أن كل شيء سيكون بخير، لكن من وقتها لم تتوقف عن البكاء.

\* \* \*

شيء كبير تغير، أهمهم أن مامي لم تعد تحتضني كثيراً، كأنها موجودة وغير موجودة معي، هل تلومني؟ غاضبة مني بسبب ما فعلت؟ لكنها ظلت تعدّ لي الأكلات والحلوى التي أحبها، تطبخ أكثر وتلح عليّ في الأكل، فأكل، مازالت تحبني، لكنني لم أعد أفهمها، كأنني تركت مامي القديمة في الليلة التي تركنا فيها المنزل.

لم يضايقني البقاء عند جدي، إلا عندما أتى خالي وليد مع زوجته وأطفاله للبقاء أيضاً، كانوا ثلاثة، سيلين أصغر مني بسنة، وعمار أصغر مني بعامين، ولوجين الصغيرة جداً ما زلت ترضع ومع أمها طوال الوقت فلم تضايقني كأخويها.

كنت أحب البقاء في غرفتي أنا ومامي طوال الوقت، حتى لو لم نتحدث، فلا أحب اللعب مع سيلين التي ترفض مشاركتي كل لعبها، ولا مع عمار السخيف والشقي جداً، والذي لا يتوقف عن مضايقتي وعن تكراره دوماً أنني سمينة جداً، وسأكسر دراجته إن ركبتها.

زوجة خالي تتحدث دوماً عن أنهم مضطرون للبقاء هنا؛ لأنه أقرب لمدارس سيلين وعمار،

ويحتاجون كل غرف المنزل، وفي إحدى المرات أحضرت لي الكثير من الشيكولاتة وبدأت أطف من المعتاد، ثم سألتني:

- ألا تعرفين لماذا تركت مامي منزلكم يا لولو؟

لم تكن مامي قريبة مني، وتوقفت عن مضغ قطعة الشيكولاتة دون أن أشعر وأحداث الليلة الأخيرة تظهر أمامي فجأة.

- أريد أن أعرف فقط؛ لأحاول إقناع مامي أن تعودوا كلكم لتعيشوا مع بعض مرة أخرى.

بلعت ما بفمي دون أن أشعر بمذاقه، وقلت بخفوت:

- لا أعرف.

ابتسمت بطريقة غريبة وقالت:

- أخبريني يا حبيبتي، لم تشاجر والداك؟ أيسبب امرأة أخرى يعرفها والداك؟ ألم تسمعي شيئاً؟

أتقصد سوزي؟ لا أعرف.

قالت بحدة أمام صمتي:

- تكلمي يا حبيبتي قد تنقذين مامي من أن تصبح مُطلّقة.

نظرتُ لها باستغراب، لكن قبل أن نتحدث ثانية ظهرت مامي واقتربت منا، وعندما عدنا لغرفتها حكيت لها ما حدث، وسألتها ماذا تعني كلمة «مُطلّقة».

لم تجبني، لكن بدت غاضبة بوضوح، تشاجرت مع خالي وزوجته، ودخلت غرفة جدي تتحدث معه، لكن عندما غادرتها وعادت لغرفتنا انفجرت في البكاء.

كنا قد بقينا عند جدي طوال العام الدراسي، وجزء من إجازة الصيف، أتى عيد ميلادي الحادي عشر باحتفال صغير، صنعت مامي حلوى وساندويتشات لذيذة، لكن لم تكن تضحك ككل سنة، وحتى كعكة عيد الميلاد سبقني عمار لإطفاء شموعها وهو يضحك بسماجة بالغة، فلم أتمنّ أمنية!

ثم فاجأتني مامي في أحد الأيام حين أخبرتني بأننا سنذهب عند جدتي.. سوزي!

- ألا يمكن حتى أن نعود عند بابي؟

سألتها برجاء، فردت بهدوء دون أن تنتظر لي:

- لا، إن أردت الذهاب وحدك اذهبي، لكن لا أحد هناك ليعتني بك، ووالداك في الخارج أغلب الوقت.

كنت أريد أن أسألها أيجب أن يحدث هذا الطلاق الذي قلب حياتنا بالكامل رأساً على عقب؟ لكن خفت أن تصرخ بي ككل مرة يذكر أحد هذه الكلمة في كلامه معها.

- أخيراً تكلمت وجئت منزل أمك! قلت لك لن يبقى لك غيري في النهاية، أبوك باعنا منذ زمن!

كان منزل سوزي كبيراً وجميلاً جداً، به حديقة وحمام سباحة، والكثير من الغرف، استقبلتنا

بثرثرة طويلة كأنها تُحدّث نفسها:

- وما هذا؟ لماذا تركت وزن البننت يزداد هكذا؟ ستفسدين جسدها! يجب أن تبدأ من الآن  
«دايت» منتظماً، ستكرهك حين تكبر إن تركتها هكذا.  
قالت مامي وهي تضع الحقائب في غرفتها الجديدة:  
- إنه وضع مؤقت حتى أجد عملاً وأخذ منزلاً لي ولسلمي، كان يجب أن أجد عملاً منذ وقت  
طويل، لكن.. تعبي الفترة الماضية عطّني عن ذلك.  
- ههههه! أي عمل هذا الذي سيوفر لك إيجار منزل وأكل وشرب؟ أم تتوين العمل في الفن  
مثلي؟ إذا كان هذا فأضمن لك سرعة الوصول.  
بدت مامي غاضبة وقالت:

- لا أحب المزاح في هذا الأمر وأمام البننت! إن كان وجودنا هنا سيسبب لنا مشاكل فسأرحل  
فوراً.  
قالت جدتي بحدة:

- انتظري! يا ساتر! كئيبة كأبيك ليس لك في المزاح، لا أعرف كيف تحمّلك هشام بطريقته  
المعسولة في الكلام طوال هذا الوقت!  
تجمّدت مامي مكانها، وبدت متعبة فجأة، أسرعت جدّتي تحتضنها وتعنّذ لها وتكرّر أنها كانت  
تمزح، حسناً هي غبية كما ظننتُ دومًا، فكم مرة أخبرتها مامي بأنها لا تحب المزاح ومع ذلك لا  
تتوقف عنه!

تكرّر ذلك الموقف كثيرًا بعدها، كل يوم تقريبًا، ينشاجران ويتصالحان، ومامي تبحث عن عمل،  
وتطبخ لي الطعام الذي أحبه، ولو من دون علم سوزي، لكن حتى عندما وجدت عملاً لم ننقل  
لمنزل آخر، بل بتّ أمضي مع سوزي وقتًا أكبر للأسف، وبقينا عندها حتى بدأ العام الدراسي  
الجديد، وبدأ الجميع فجأة يعاملونني بشكل مختلف، وكأنني كائن عملاق ولست الفتاة الجميلة كما  
اعتدّ.

كنتُ أعرف أنني صرت أكبر حجمًا منهم، وأطول أيضًا، وأنني منذ شهور لم أعد طفلة كما  
أخبرتني مامي ونظراتها تهرب مني، بعدما أصبح لديّ «بيريود» كما تقول، لم أفهم إن كان  
«تغيري» أمرًا جيدًا أم سيئًا، أسمع مامي تقول لسوزي: لم أتوقع هذا! مازالت صغيرة! فتردّ  
سوزي ملوحة بسيجارتها: بعض الفتيات تتضج بسرعة، ومع نمو جسمها الملحوظ توقعت هذا.  
غمرني خجل وضيق كبيران وأنا أشعر بأن كل من في المدرسة يعرف «التغير» الذي حدث  
لي! حتى اكتشفتُ أن سخريتهم تتركز كلها على شكل جسدي، وأن وزني الزائد هو ما يجعلهم  
يضحكون مني كلما رأوني أكل أو ألعب أو أفعل أي شيء!

ألهذا لم تعد مامي أيضًا تحتضنني كما كانت؟ تحولت حياتي لتحدّ وشجار دائم مع سوزي التي  
تريد أن تمنعني من الأكل، وسخرية استهزاء من زميلاتي في المدرسة. شكوتُ للمدرسين أكثر من

مرة ولم يفعلوا شيئاً، وعندما لم تتوقف المضايقات؛ بدأت أريهم أنه يمكنني بحجمي الذي يسخرون منه، أن أؤدي كل من يضايقني منهم.

لم يعاملني أحد من فصلي بلطف سوى تاليا، كانت فتاة جميلة نحيفة، تتحدث وتضحك كثيراً لكن معي وليس عليّ، وبدأت أتحدث معها، وأحكي لها عن كرهى لسوزي التي تريد منعي من الأكل طوال الوقت، وتضايقني بكلامها وأسلوبها.

كنا في الحصة الأخيرة والمدرسة لم تأت، فجلسنا في آخر الصف لتتحدث بحرية، وبعدما وافقتني على أن جدتي شريرة، قلت لها:

- أعطيني «التابلت»، سأريك شيئاً مضحكاً.

كانت تحضره دوماً في المدرسة وتخفيه عن المدرسين، فأعطته لي بترقب، بحثت عن أغاني سوزي رفعت على يوتيوب، واخترت أغنيتها الأخيرة، ضحكت باستهزاء وأنا أريها لتاليا:

- هذه هي جدتي! أتصدقين!

صاحت منبهرة:

- بجد؟! جدتك مشهورة؟

- نعم مشهورة! لكن لا تخبري أحداً في الفصل! إنه سر!

- طبعاً!

وتابعت مشاهدة الأغنية، فأخذت تضحك وضحكت معها.

عندما عدت للمنزل ذلك اليوم شعرت بأنني انتقم من سوزي حتى لو لم تعلم، لم تكن مامي عادت من العمل بعد، ووضعت لي سوزي طبق غداء مقرف من الخضراوات وتفاحة، تركته أرمقها بغضب، وأخذت التفاحة لأبقى في غرفتي، سأنتظر حتى تتشغل أو تنام وأخذ من المطبخ الأكل الذي أريده، وأرمي طبق الخضراوات في القمامة، ككل يوم وهي تظن كالغبية أنني أكل الخضراوات حينما أجوع.

وبعد كثير من الزمن على مامي قالت لسوزي بعدما عادت من العمل:

- لا مشكلة في قطعة حلوى صغيرة يا سوزي، لولو مجرد طفلة، ثم إن بنية جسدها مختلفة عنا

ليس إلا، هي أطول وأكثر نضجاً مني عما كنت في سنّها، اختلاف طبيعي، أنتِ طبعاً لم ترني تقريباً في هذا السن أصلاً، لكني أتفق معك أن أكلها يجب أن يكون متوازناً وصحياً، لكن دون أن نحرّمها من شيء.

ردت سوزي بصوتها العالي الساخر:

- لا فائدة فيك! يجب أن أكون الأم الشريرة دوماً في كلامك! اسمعي؛ يجب أن تحافظي للبنبت

على جسمها، إنه أعلى ما تملك أي فتاة، انظري لي.. انظري، مازالت أدير رؤوس الرجال حتى

الآن!

- لن تعقلي أبداً يا سوزي!

- ألا يعجبك عقلي يا حبيبتي؟ لكنه غير مهم على أي حال، المهم ما تريه أمامك.  
قالتها سوزي وهي تضع يديها في وسطها النحيل، شعرت بأنها تغيظني وملائي الضيق، في حين ردت مامي هازئة:

- آه فعلاً! هذا هو المهم!

- يا ذكية هانم الرجال لا يهتمها سوى الشكل، والذكاء أن تحركهم وتتحكمي فيهم كالعرائس دون أن يشعروا! كل الرجال ظلوا ألعوبة في يدي يتمنون نظرة رضا أو كلمة مني سواء أكبر أو أصغر مني!  
ونظرت حولها تقول بعصبية:

- أين سجائري! مللت منك ومن ابنتك! أنت حرة!

بعد عدة أيام زارنا بابي، كان يأتي كل فترة ليرانا ويجلس معي، حتى عندما كنا عند جدي، لكن عند سوزي بات يأتي أكثر، أشعر بضيق مامي من هذه الزيارة، خاصة وبابي يحاول التحدث معها دائماً، وحتى عندما تتركنا كان يذهب وراءها ويتركني مع سوزي، كأنه يأتي لرؤيتها هي وليس أنا، أنا أيضاً لم أكن أحب زيارته كثيراً، هو في كل الأحوال كان لا يقضي وقتاً طويلاً في المنزل، مامي من تفعل لي كل شيء، تحبني وتطممني وتذاكر لي وتأخذني للمطاعم والألعاب، أما بابي فمثل سوزي يعلق دائماً على زيادة وزني، ولا أشعر بأنه يحبني كما كان قبل أن أخبره بما أفسد حياتنا كلنا.

كنت أنظر لنفسي كثيراً في المرأة بسبب كلامهم لأرى ما الخطأ بي، يربكني ويحيرني اختلاف معاملة أسرتي وزميلاتي؛ عن معاملة بعض الفتيان من المدرسة أو النادي، الذين مازالوا يرونني جميلة.

تاليا تقول إنني جميلة، أبدو فقط أكبر من عمري وكأنني في السادسة عشرة، وتحسدني على ذلك، تتمنى لو أن لها عينين خضراوين مثلي وشعر طويل ناعم كشعري، ورغم أنها طويلة مثلي لكن أنحف بكثير، وكانت تقول بصراحة إنها تحسدني لأن جسدي يبدو كجسد الفتيات الكبار وألبس حمالة الصدر «الكريهة»، وليس كالأطفال مثلها! وأنا أحسدها بالمثل لأن جسدها لا يسترعي هذا الاهتمام من حولها، ولم تتغير، فأتمنى أن أنحف وأنحف حتى أحتقي ولا يراني أحد.

فتحت درجي الصغير أمسك سوار الملاك الذي أهدته لي مامي منذ عامين، حتى السوار بات ضيقاً حول يدي ويضايقني، وكان الملائكة يجب أن تكون نحيفة دائماً.

خرجت للصالة أفكر في إهداء السوار الضيق لتاليا لو وافقت مامي أن تمنحني سوارها ليكون دليل الصداقة الأبدية بيني وبين تاليا، لكن لم تأت الفرصة وأنا أجد سوزي ككل مرة بعد مغادرة بابي تحاول إقناع مامي بالعودة للمنزل:

- حرام عليك! مازال يحبك.

لم تردّ مامي.

- اسمعي، كلاكما لا يريد أن يخبرني سبب كل هذا، هشام الذي كان دائماً كتاباً مفتوحاً لي يخفي

عليّ ولا يصارحني بسبب خلافكما! وهذا لا يدل إلا عن شدة حبه لك!

- يا لها من مفاجأة، هشام يحبني أكثر مما يحبك!

قالتها مامي تضحك بطريقة مختلفة، فبدت الجدية على وجه وسوزي وهي تقول:

- لا أريد كلاماً خائباً! هشام مخلص لك طول عمره، ويعشق التراب الذي تدوسين عليه! لا

تعرفين كم النساء اللاتي ارتمين عليه ورفضهن لأجلك! ماذا بك؟ لماذا لا تحبينه!؟

نظرت لي ماما وقالت:

- اذهبي لغرفتك يا سلمى.

- لا تتحججي بسلمى وردي علي!

- سلمى!

تحركت مرغمة، لكنني وقفت في الرواق أسمع بقية الحديث.

- أم إن قلبك لا يرقّ إلا وأنت تمسكين الهاتف وتنتظرين للرقم الذي يتصل بك باستمرار دون أن

تردّي عليه؟ لا تتظري لي هكذا! أتظننني كبرت ولم أعد أفهم هذه الأمور؟ أنا أعرف كل شيء

يحدث هنا! من هذا الذي يتصل بك؟ رقم من خارج مصر، من يكون؟ لكنك حتى لا تجيبينه هو

الآخر! ماذا بك يا ليلي؟ ماذا بك؟ هل مسحت الأدوية والمهدئات عقلك كما يقول هشام!؟

سمعت صراخ مامي بوضوح:

- ليس لك شأن بأي شيء يخص حياتي! ولا أسمح لك بالتحدث معي في هذا الموضوع مرة

أخرى!

- والله يبدو لي الموضوع أنك من عرفت عليه رجلاً آخر وليس هو!

- أنت! كيف تجرؤين! أنا لن أمكث في هذا المنزل لحظة.. لحظة.. واحدة..

بدأ صوتها يرتعش بوضوح، تقدّمت بفزع لأراها تتهاجر في البكاء، وسوزي تهرع إليها

وغضبها يتبخر كالعادة وتحاول مصالحتها، لكن مامي أخذت تبكي كما كانت تفعل طوال الوقت

وهي مريضة.

دخلت غرفتي وتكومت تحت غطائي أبكي بصمت، ليبتني ما قلت لبابي أي شيء.

في اليوم التالي في المدرسة حكيتُ لثاليا كل شيء، ليشاركني أحد أخيراً سري وشعوري

بالذنب:

- مامي كانت خائفة وكذبت عليه، قالت إنها لم تكن هناك، لكنني أعرف أنها كانت تخشى أن

يغضب منها بابي أكثر، لهذا كذبتُ، وأنا الغبية التي قلتُ كل شيء! أنا السبب، ليبتني ما أخبرت

بابي بأني رأيتها في شقة أونكل سليم، أخذ يقول إنها.. خائنة! وهي ليست كذلك!  
قالت تاليا والشقاوة في عينيها:

- أنت ساذجة جدًا يا لولو ولا تفهمين شيئاً، ربما كانت تذهب لتقابله بعدما تتامين! ألا تشاهدين الأفلام؟ حتى اسمك سلمى كاسمه! يبدو أنها حكاية كبيرة!

صدمني كلامها، نفس السؤال الذي قاله بابي ونسيته؛ لأنني لم أفهمه، أهي حقاً سلمى سليم؟! كيف يكون هذا؟! بدا التفكير في الأمر محيراً ومتعباً، وشعرت بأن تاليا تفهم أموراً أكثر مني وتتكلم كالكبار، أم إنني الغبية حقاً وسط كل هؤلاء الفتيات؟  
قلت في النهاية:

- لا أريد التحدث في هذا الموضوع، وتذكري أنه سر بيننا، إياك أن تخبري أحداً.  
- طبعاً لا تقلقي.

بمرور الأيام شعرت بأني أريد الاختفاء ولا تراني مامي، لا أريد أن أحدثها كي لا تبكي، كي لا أتذكر دائماً أنني سبب تركنا المنزل تلك الليلة. هي أيضاً كانت تخبرني دوماً وهي تمسك كتفي وتتنظر لعيني بانفعال:

- أريدك أن تكوني قوية يا سلمى، لا تعتمد على أحد، لا تربطي حياتك بأحد ولو أنا! ليس لك سوى نفسك ومستقبلك.

لم أفهم سوى أنها أيضاً لا تريدني أن أتحدث إليها، وأصبحت تاليا الوحيدة التي أبوح لها بكل ما أفكر فيه، واقترححت عليّ أن تساعدني للانتقام من سوزي، سألتني ذات ليلة ونحن نتحدث كالعادة مكالمة فيديو عبر هواتفنا:

- ألا تأخذ أي أدوية؟ ضغط أو سكر أو هذه الأدوية التي يأخذها العجائز؟  
- لا أظن، ولا تبدو عجوزاً جداً.

- راقبيها وستعرفين، يمكنك بسهولة خلط الأقراص إن كان لديها منظم الدواء اليومي، لن تنتبه وستأخذ جرعات خاطئة، فعلت هذا أكثر من مرة مع جدتي كلما ضايقتني.

- لكن هذا خطر يا تاليا!

- ليس كثيراً، تتعب عدة أيام وتعود بخير، المهم أن تتشغل عني، طيب اسمعي، أليس لديك قطة أو كلب؟ كلما مرّت جدتك بجانبك تفلتين القطة أمامها فجأة فتتعثر، أفلعل هذا دوماً مع خادمتنا وتكسر الأكواب والأطباق ومامي تصرخ بها وتضربها أحياناً.

وضحكت بسرور، فسألتها:

- هل تضايقت الخادمة أيضاً؟

- لا، لكنه أمر مُسلّ.

- آه.

- اسمعي، أسهل شيء بما أنه ليس لديك أي شيء آخر، تعمّدي في الصباح سكب كوب الكاكاو الساخن عليها وكأنك لا تقصدين، واجري بسرعة على المدرسة، اسكبي أي شيء عليها كل يوم وسيجنّ جنونها.

قلت لا أشعر بالراحة:

- طيب سأفكر.

- لا تتظاهري بأنك طيبة جدًّا، لقد كسرت ذراع سهيلة وسين مريم!

- لم أقصد! نعم دفعتهم عن قصد، لكن لم أظن أنهم سيتأذون هكذا! وكانوا يهزؤون مني يا تاليا

ويضحكون علي! تعرفين ذلك!

ضحكت وقالت:

- أعرف أعرف، غير مهم.

كان من أسباب حبي لتاليا أنها مثلي تعيش مع جدتها أغلب الوقت، فوالداها طبيبان ويقضيان طوال اليوم في عياداتهما الخاصة، فلا تكاد تراهما، وبتنا شريكيتين في مضايقة الجدات لنا.

بعد أيام في حصة خالية يقف علينا مدرس احتياطي لا يهتم بما يدور، أخرجت تاليا التابلت

وقالت لي ونحن في آخر الصف كالعادة:

- سأريك فيديو مهمًّا.

شاهدت باهتمام الفيديو القصير، بدا كأنه جزء من فيلم أجنبي، خرجت امرأة جميلة من منزلها

بعد أن ودّعت زوجها وأطفالها، لتتسوّق كما قالت، لكنها تذهب لمنزل رجل آخر، تحتضنه ويبدو

الحب على وجهها، ثم تبدأ في خلع ملابسها لتفعل أمورًا «عيب»!

دفعتُ التابلت بحدة وصحت بتاليا:

- ما هذا!

لكزنتي تقول:

- أخفضي صوتك! أردتُ أن أريك ماذا تفعل الخائنة! أليس هذا ما تودين معرفته؟!!

ملأني الغضب والجرح وقلت:

- لا! هذا كذب!

- يا لك من طفلة صغيرة غبية!

ونهضت مبتعدة عني، بقيت جالسة مكاني أقوم رغبتني في البكاء حتى موعد الانصراف، وفي

المنزل دخلت غرفتي مباشرة دون أن أرغب في أي أكل، قبل أن انفجر في البكاء.

عندما دخلت مامي لتطمئن عليّ بعد ساعتين تظاهرت بأنني نائمة، فقبّلتني وربّنت عليّ قبل أن

تغادر الغرفة. لا، لا يمكن أن أصدّق إنها مثل تلك المرأة! لا يمكن!

اتصلت بي تاليا كالعادة قبل النوم، كانت مستاءة مني، لكنها أخبرتني أنها لم تقصد مضايقتي،

فسامحتها ولم أعد غاضبة منها، وغادرت غرفتي في وقت متأخر لأعدّ لي بسرعة طبق أكل كبيراً، قبل أن تنتبه سوزي.

انتظرت اليوم التالي في المدرسة لأخبرها بأن مامي ليست خائنة ولا يمكن أن تفعل ذلك، لكن تاليا لم تبدُ مهتمةً كثيراً، وظلت لطيفةً معي، صديقتي الوحيدة والأقرب لقلبي، حتى قالت لي مرة:

- ما رأيك لو جرّبنا أن نقلدهم؟

- نقلد من؟

- الفيديو الذي أريته لك!

نظرت لها لا أفهم:

- ولماذا نمثل؟ أتحبين التمثيل؟

ضحكت وقالت:

- ألم تشاهدي فيديوهات مثلها أبداً؟

- كلا بالطبع! مامي تقول إنها عيب!

ضحكت ثانية:

- إنها مسلية وليست عيباً، كل الفتيات يفعلن ذلك في حمام المدرسة وفي النادي ومع الأولاد أيضاً.

شعرت بالفزع، وقلت مرتبكة:

- لكن.. لا أريد أن أفعل مثلهن!

- جرّبي ولا تكوني مملة!

- لا!

صحتُ بصوت عالٍ جذب اهتمام المدرس لنا، فرمقتني تاليا بغضب، وبعد تعنيف المدرس لنا معاً وانتهاء الحصة، قالت تاليا وكأنها تكرهني:

- لن أجلس بجانبك مرة أخرى!

عدتُ غاضبةً وحائرةً لمنزلي، انتظرت أن تتصل بي تاليا ككل ليلة ولم تتصل، قضيت ليلتي تعيسة لا يسليني سوى دندنة موسيقى تسللت لأذني من غرفة مامي، الموسيقى التي كانت تحبها عندما كان ثلاثتنا نعيش في منزل واحد.

وفي اليوم التالي عندما أردتُ الكلام مع تاليا سألتني أولاً هل سأجرب ما قالته أمس أم لا، فرفضتُ مجدداً بتردد، لتبتعد عني وأبقى وحدي طوال اليوم، وتكرر هذا كل مرة أريد مصالحتها فيها، فكرت أن أجرب لأخلص من هذا الموضوع وتعود تاليا صديقتي، فكلمتها وأخبرتها بأنني وافقت، بشرط أن تجلس بجواري في الفصل كل يوم، ولا تتركني وحدي.

قفزتُ بحماس، واتفقت معي أن نلتقي في الفسحة في حمام محدد في مبنى مختلف في المدرسة،

لا ندخله عادةً. ذهبتُ ودقات قلبي تدقُّ بقوة، كانت في غرفة الحمام الأخيرة كما أخبرتني، وكنت أهُمُّ برجائها أن تعود صديقتي دون أن نفعل شيئاً، لكنني تجمدت مكاني وأنا أرى ولدًا آخر من المدرسة معها، مُهاب، كان يكبرنا بصفين دراسيين، وأراها تقف معه أحياناً في الفناء أو تذكره في كلامها، تتحدث عن إعجابها به، دون أن يثير الأمر اهتمامي.

- تعالي!

قالت وابتسامتها تبدو مزعجة وغير فرحة.

- مُهاب يريد أن يتعرف عليك.

بقيت مجمدةً مكاني أرمقهما بذعر، واتخذ كل شيء شكلاً مختلفاً ومُرعباً عما ظننته، بدا فجأة أنها ليست مجرد لعبة شقيّة مع تاليا، وجود مُهاب وهو ينظر لي بابتسامة سخيفة جعلني أشعر بأن كل شيء خاطئ وغريب!

- لا!

هتفتُ بوضوح حينما حاولت جذبي ثانية، فقالت بعصبية:

- أخفضي صوتك! أنتِ مجنونة!

تقدم مُهاب نحوي يقول بلطف:

- لا تخافي، سنتحدث فقط، أنتِ جميلة جداً، وأنا معجب بكِ من أول السنة.

لا أعرف لماذا لم أتحرك بسرعة كما أريد، كأن الموقف كله يسمرني في الأرض وأتصرف ببطء شديد، حتى قالت تاليا بحدة وهي تدفعني بغضب:

- قلتُ لك إنها مملة وغبية! وأنتِ لم تصدقني!

نظرت لها تؤلمني كلماتها بشدة، وحينما أمسك مُهاب يدي بقوة وهو يقول كلمات لطيفة، ابتعدت عنه فجأة أستعيد قدرتي على التحرك من جديد، أجري لأغادر المبنى كله، ضربات قلبي تصمُّ أذني.. والعرق البارد يغمر وجهي، قاومت غثيان دفع الدموع لعيني، لم أشعر أبداً بهذا الخوف من قبل.

أردتُ أن أحكي لمامي ما حدث، لكن خفتُ، خجلتُ، ستقول إنني المخطئة لأنني وافقت على ما طلبته تاليا وذهبت معها، ستقول لي: «طلبتُ منك أن تكوني قوية» ولم أكن، فلم أقل شيئاً.

توقفت عن محاولة مصالحة تاليا، وابتعدت هي أكثر ونظرة عداة دائمة في عينيها، لا أعرف كيف يمكن أن تكرهني بهذه السرعة وأنا لم أؤذيها أبداً؟ كيف بعد أن كنا أقرب صديقتين تبتعد عني هكذا لأجل شيء تافه!

هل تفعل الأشياء العيب مع مُهاب؟ ألهذا كانت تقول إنها معجبة به؟ أضايقها أنه أراد التعرف

عليّ وقال إنني جميلة؟ ألهذا تكرهني الآن؟

طوال اليوم أفكر ولا أصدق أنها يمكن أن تكرهني بهذه السهولة بعد صداقتنا، وبت أراها تقف

مع الفتيات والفتيان؛ تُحدثهم وينظرون لي ويضحكون، وفي مرة غنّت فتاة منهم وهي ترقص بسخافة: «يا حبيبي لأ!» فعرفت أن تاليا أخبرتهم عن سوزي! وربما أخبرتهم عن مامي وقالت إنها خائنة!

ماذا إن عرفت مامي أنني حكيت كل شيء عنها! ماذا لو أن المدرسة كلها عرفت! سيقول الجميع عنها إنها خائنة! سيثيرون إليها كما يثيرون إلي!

سيغضب بابي مني أكثر! وستكرهني مامي للأبد!

وتحققت كوابيسي ومُهاب يستوقفني في الفسحة ذات يوم وهو يقول مستهزئاً:

- لماذا تمثلين هذا الأدب وجدتك سوزي رفعت! وماذا عن أمك؟ هل ترقص أيضاً!  
وانطلق هو والآخرون يضحكون وأولهم تاليا.

كنتُ أعيش في رعب مستمر من أن يصل شيء من هذا لمامي، والضحك والهمز واللمز في المدرسة يزداد.. وتاليا تضحك معهم وتشير إلي! أنت الخائنة يا تاليا! أنت الخائنة!

انتظرتُ حصة السباحة الأسبوعية، وتفكيري في الانتقام يزداد، جاءت الفرصة وهي تعوم حولي وتنتظر لي بطريقة كلها سخرية وشماتة، عندما كنا صديقتين كانت تغطس قربي وتظل تقرصني من تحت الماء بمزاح لم أحبه، لكنني كنتُ أسكت كي لا أغضبها، كانت تخبرني أنني أجمل بنت فيهن بلبس السباحة، وأن الكابتن وبعض فتيان المدرسة ينظرون لي بطريقة خاصة؛ لأنني مثل الفتيات الكبار، لم يكن يهمني كلامها هذا كثيراً، فأنا أشعر بالخجل من كل النظرات؛ المزعجة واللطيفة معاً، ولا يعجبني عندما تتحدث كالكبار أو تقول إنني أشبههم.

بقيت مكاني في الجانب العميق من الحوض، وعندما غطست تاليا وقرصتني بقوة متعمدة مضايقتي، غطست دون تفكير ودفعتها للقاع أكثر أعرف أن ليس لها طول هنا، استندتُ بيدها على أرض المسبح مذعورة من ضغطي عليها، وقفتُ على ذراعها أستعين بكل ثقلي أقاوم الماء الذي يرفعني، حتى وضعت قدمي معاً فوق ظهرها وأنا أرفع رأسي فوق السطح وأواصل تحريك ساقي بإصرار كي لا تقلت مني.

نعم أنا قوية وحدي!

«سلمى تحركي! لماذا تقفين هكذا؟»

أدركتُ برعب مفاجئ أنه لم يكن بإمكانني أن أتحرك، فإن تحركتُ ستطفو ويرونها.. وإن بقيتُ فتاليا قد تموت.. لا أريدها أن تموت، أردتُ فقط معاقبتها، ككل فتاة هزأت مني وضحكت علي!

«سلمى الكابتن أمر أن يخرج الجميع من حمام السباحة، الحصة انتهت!»

أصرّت المشرفة وتابعت خروج الفتيات بانتظام قبل أن تعيد نظرها لي هاتفة:

- سلمى قلتُ لك.. يا نهار أسود! من هذه!

انزلق من تحت قدمي جسد تاليا الذي كان قد توقف عن المقاومة وطفا للسطح، حاولتُ بردّ فعل تلقائي جذبها لأسفل ثانية لأخفيها عنهم، لكنهم رأوها، وبعد صرخة المُشرفة توالى الصرخات وتجمدتُ مكاني، قفز أكثر من كابتن بسرعة في حمام السباحة، كلهم يصرخون ويشيرون إليّ.. كلهم يسبحون بعنف ويتجهون نحوي.. توقف قلبي من الرعب.. هذا أسوأ من كابوس!

هي! هي السبب! هي الخائنة!  
لكن لم يخرج مني أي صوت.

\* \* \*

- هذه ليست أول مشكلة تتسبب فيها سلمى، ابنتك بحاجة لتعديل سلوك ومتابعة من متخصص، ولا يمكننا تحمّل هذه المسؤولية في المدرسة، يكفي ما أصاب سمعة المدرسة نتيجة انتشار خبر الشروع في جريمة قتل من إحدى طالبات المدرسة! صفحات الإنترنت روّجت الخبر في أبشع صورة، وبانت فضيحة للمدرسة كلها، وقرار الفصل بالإجماع.

قالت المديرية بقسوة، طالما كرهت تلك المرأة بوجهها الصارم العبوس، أنا سعيدة في الحقيقة بفصلي من المدرسة، ملأني إحساس ثقيل وأنا أدخلها مع مامي وسوزي هذا الصباح، ما المهم لو ضاعت السنة عليّ كما يقولون؟ أعرف أن زميلاتي يحسدنني لأنني لم أعد مضطرة للذهاب مثلهن.

حاولت مامي برجاء:

- لكنه حادث غير مقصود.

رمقتني المديرية بعداء وقالت:

- بل مقصود بشهادة أكثر من مدرّس، ودعكم من موضوع الفصل، وادعوا الله أن البنت تتحسن، وإلا قدّم أهل تاليا بلاغاً رسمياً وتتحول ابنتكم لـ«الأحداث» ويضيع مستقبلها.

قالت جدتي بحدة:

- هل سيشهد مُدرّسوك المحترمون على فتاة صغيرة ويضيعون مستقبلها!

- المُدرّسون هنا أشخاص محترمون وسيشهدون بالحق، لو تحولت القضية لجريمة قتل بالفعل.

- أنتم تهوّلون الأمر! ثم إنه إهمال من المدرسة! أين المراقبة لفتيات في أعمارهن!

- المراقبة هي التي منعت وقوع جريمة القتل حتى الآن يا مدام سوزي!

حاولت مامي وجدّتي لبضع دقائق أخرى، لكن جفاء المديرية الواضح لم يترك لهما أي فرصة.

وركبنا كلنا السيارة لنعود للمنزل وجدّتي لا تتوقف عن مضايقتي بل وضربي!

تاليا المخادعة! أمعقول أن تبقى مريضةً طوال هذا الوقت؟ ربما تمثّل عليهم ليعاقبوني!

رنّ هاتف سوزي وأجابته، لم تتحدث كثيراً، لكنها قالت لمامي شيئاً لم أسمعها، قبل أن تقول

بحدة:

- لن تبقي أنتِ وابنتك في منزلي بعد الآن! كلمي أبوها تصرفي!

فصرختُ فيها:

- وأنا لا أريد أن أعيش معك! أنا لا أحبك!

- غبية لا تفهمين شيئاً!

والتفتت تضربني! لا تعرف أنها السبب في كل شيء، وأن الجميع يسخر مني بسببها! أنا لا أحبها!

حاولت مامي أن تنظر لعيني لتهدئني، لكنني كنتُ مشحونةً غضباً وإحساساً بالظلم! نعم أنا المظلومة هنا.. وتاليا الخائنة!

تاليا شريرة، وتفعل أموراً عيباً! هي من تستحق الفصل من المدرسة وليس أنا! لماذا لم أحكِ لمامي عندما سألتني؟ سأخبرها فور أن نصل للمنزل، ونبتعد عن سوزي، سأخبرها بكل شيء فعلته تاليا لتعرف أنها تستحق ما فعلته بها!

«سلمى!»

صرخت مامي فجأة وشاحنة كبيرة تتجه نحونا، صرخنا كلنا نميل بعنف وصوت عالٍ يتصاعد كأن السيارة تصرخ معنا، قبل أن تتقوّ علينا السيارة العملاقة كالوحش وتدفعنا لحفرة عميقة من الظلام..

لم أخبر مامي بكل شيء.. لم أعتذر لها؛ لأنني أفسدت حياتنا.. لم أخبرها بأنني لم أصدق أبداً أنها.. خائنة.

«عالمي يعتني بي.. كل شيء بسيط وشفاف، أنا أفكر بوضوح، فلأكن أفضل احتمال لي». ضحكْتُ طويلاً ورياض يردد تلك الكلمات باسترخاء واقتناع تام، ممدداً على المقعد الطويل أمام حوض السباحة، بفيلا خالي.

- والله مجنون! أتصدق هذه التخاريف فعلاً؟

قلتُ هازئاً، لكنه تجاهلني تماماً واستمر في جلسة استرخائه، رياض، صديقي ورئيسي في شركة خالي مختار، هو من علمني أصول العمل، وأسرار الصفقات والمناقصات، فهو الذراع اليمنى لخالي وأمين سره، وأنا بدوري مساعده هو.

أخذ يحدثني مؤخراً عن هوسه بنظرية الاحتمالات، وقانون الجذب وهالات الطاقة وغيرها، وبالرغم من إثارته لاهتمامي، وشغفي بالكتب عموماً، إلا أنني استمررتُ في السخرية منه. شيء ما أسررتَه في نفسي منه منذ أن رفض خالي أن تولى إدارة المناقصة الأخيرة، وأوكل رياض فقط بها، رغم أنها من صميم تخصصي في الأجهزة الإلكترونية، وستكون قفزة هائلة لشركتي الصغيرة التي أقنعت خالي بجهد أن أوسسها وأديرها بعيداً عنه، صحيح أن رياض ساعدني في إقناعه، لكنني أعرف أنه لم يفعل ذلك إلا كي أبتعد أكثر عن الشركة الرئيسية، ويحظى هو بالقرب أكثر من خالي ورئيسنا في العمل.

رياض في بداية الخمسينات، يصغر خالي ببضع سنين، متوسط الطول والبنية، بوجه بيضاوي وقور، ورأس أصلع تماماً، يمنحه مع بريق عينيه خلف نظارته الطبية شيئاً من الخطورة والهيبة، والأهم يشع نشاطاً وذكاءً، وأمامه كثير من السنوات قبل أن تقتر همته، وأصبح أنا ذراع خالي اليمنى بدلاً منه.

أعرف ما يقال عن أنني لم أبلغ هذه المكانة في مجموعة شركات خالي مختار؛ إلا لأنني ابن أخته المدلل! لكنني لم أهتم؛ فطموحي بلا حدود، وأستحق أن أكون الرجل الأول بعد خالي وليس رياض.

لا بد أنه هو من أقنع خالي بإبعادي عن تلك المناقصة، وخالي استمع له؛ ليثبت أنه رجل عملي، قوي الشكيمة، لا يجامل قريبه.

فكرت حينها لأول مرة أن الوقت حان لرحيل رياض؛ لمنعه من أن يكون عقبة بيني وبين خالي مرة أخرى.

تمددتُ مكاني، وحاولت الاسترخاء مثله، لكن العرض الأخير لم يفارق ذهني، بيدي الآن فرصة لأزيح رياض عن طريقي، خطوة مُغامرة وكبيرة، ستجعلني أخسره، وأكسب مستقبلي، مع رصيد ضخم في البنك، أو أخسر كل شيء! ولا أدري أفعلها أم لا؟

لكنني بالفعل فعلتُ كل شيء لأحتلّ الحظوة عند خالي، ولا يقف بيني وبينه إلا رياض، فهل أُخطئُ إن تخلصتُ منه؟ نحن عائلة بالنهاية وهو الغريب بيننا، وكما قرأت لـ«لو أندريا سالومي» كأنها إشارة من القدر في هذا التوقيت:

«لن تمنحك الحياة أي هدية، صدّقني، إذا أردت أن تكون لك حياة، اسرقها!».

فلمَ لا؟

توفي أبي منذ سنوات طويلة، واستولى أعمامي على أغلب ميراثنا، فتحمل خالي مسؤوليتي أنا وأمي، قدّم لي جميع أنواع المساعدة المادية والمعنوية، علّمني كل شيء حتى الهوايات كالرياضة والعزف والقراءة، لم يبخل عليّ بهم ما أن لحظ اهتمامي بأمر منهم، فصار الأب والأهل الذين لم أعرفهم.

منذ صباي شعرتُ بحب ابنته عبير لي، كما شعر هو وأمي، عبير فتاة جميلة راقية، مدللة؛ لأنها الابنة الوحيدة، لكن لم تبدُ طباعها صعبة أو مُتعبة. لم أبذل جهداً في استمالتها، كانت تحق بي بهيام ما أن ألمس مفاتيح البيانو وأعزف الأغاني التي تحبها، أو أتباهي بجسدي الرياضي ومهارتي في السباحة أمامها، ككثيرات غيرها، لكن حرصني على الصورة التي أريد أن يراني بها خالي، اضطرني لكبح الكثير من علاقاتي، وأخذها بعيداً عن أي دوائر مشتركة بيننا، تظهر أحياناً بعض ذبول تلك المغامرات فأردعها بقسوة لا تقبل الجدل، حتى تزوجتُ من عبير منذ عامين دون تعقيدات، واثقاً من غرامها بي، كنتُ في الخامسة والعشرين من عمري، تخرّجت بتفوق، وبدأت عملاً اجتهدت فيه ليكون ناجحاً، والكل يتوقع أن أتزوج، فاتخذت القرار الذي أعرف أنه سيُسعد خالي ويقربني منه، وربما أردّ به أفضله.

لكن الحياة مع عبير لم تكن سهلة، لم تشأ أن تتحمل أدنى مسؤولية بعد الزواج، رغم الخدم الذين يملؤون الفيلا، تشكو دوماً من انشغالي بعلمي عنها وبقائها وحيدة، حتى لو قضت اليوم كله مع صديقاتها، تشكو أنني لم أكن معها، كثيراً ما حاولت احتواءها، التفاهم معها، لكن شروطها كانت مبالغاً وغير طبيعية، الخروج يومياً بعد العودة من عملي، والسهر وحضور حفلات معارفها التي لا تنتهي ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، بدا لي أن دور الزوج بالنسبة لها مجرد رفيق وسيم تذهب به للحفلات، وتتباهى به أمام صديقاتها ليس أكثر، لم أستطع إقناع نفسي حتى بمزيد من المحاولة، عجزتُ عن حب شخصيتها واحترام عقلها، وكان إخفاء ذلك ليس يسيراً قط.

كما أن إصرارها على إقامتنا في منزل خالي مع زوجته وأمي، يشعرني بالحصار والمراقبة الدائمة، وبعد محاولات مضيئة ولعب دور الزوج الذي تريد تحملي، تمكنت من إقناعها بالانتقال لمنزل منفصل، صحيح في نفس الكومباوند الذي تسكن فيه قريبتها السمجة من جهة أمها، ميار، لكن المهم أن نستقل في منزل بعيد عن الضغط والقيود هنا، لأشعر أخيراً أن لي بيتاً وحياة أديرهما بإرادتي وليس بإرادة خالي وابنته، وسنذهب خلال أيام مع مهندس الديكور ليجهز الشقة

كما تريد عبير، وتنتقي كل حُججها.

- أمازلتم هنا يا شباب؟

انضمّ لنا خالي، وفي يده كوب كبير من القهوة، يتخذ مقعدًا بجوارنا، فقطع رياض جلسته واعتدل ببتسم بهدوء، ويقول:

- لم نحصل على وقت للاسترخاء منذ فترة طويلة.

لوح خالي بيده:

- عندما نحصل على المناقصة ارتخ كما شئت.

- يبدو أنني أطرد بالذوق!

قال رياض ضاحكًا وهو ينهض، فابتسم خالي دون رد، معتادًا على مزاح رياض.

وبعد دقائق كان قد انصرف، وبثُّ وحدي مع خالي، حتى قال فجأة بنبرة عادية لا تشي بخطورة كلماته:

- ضعه تحت عينيك الأيام القادمة، لا أشك به، لكن الحذر واجب في صفقة مثل هذه، ومصادر من مكتب الشناوي أخبرتني بأنهم يعتزمون التواصل مع ذراعي اليمنى لتسريب ملفنا عن المناقصة، ورياض رجل طموح، مخلص لكن طموح، والطموح إذا انطلق دون رادع يلتهم صاحبه، ولا أحد دون الشبهات هذه الأيام.

كدتُ أنقلب من مكاني وأنا أحاول الاعتدال، أتوقع فجأة أن يسرد خالي تفاصيل لقائي السري بمنافسه منذ أيام، وكشفه لما أفكر فيه، لكنه ابتسم ساخرًا من تغيّر ملامحي، والصدمة التي حاولت السيطرة عليها، وقال:

- أعرف أنك تحبه وتثق به، لكن لا تثق بأحدٍ إلا لو من دمك ولحمك يا سليم.

ابتلعت ريقى الجاف وحاولتُ التماسك، أوماً برأسي متمتمًا: بالطبع، وضربات قلبي تتصاعد بقوة والوجوم يلفني.

أهي خدعة؟ أيعلم بأمرى ويريد الإيقاع بي؟

لكن لم تتغير معاملة خالي لي أو لرياض الأيام التالية، كأنه لم يخبرني بشيء، وبدأت الفكرة تتزين أكثر في رأسي، كل الظروف مهياة لها، حتى خالي يتوقع الخيانة، فلم لا يحصل عليها؟  
«أعرف أنك تحب القراءة، اقرأ هذا».

قال رياض بعد عدة أيام وهو يدفع إليّ بأحد كتبه الغريبة التي يستجلبها من الخارج، كنا في مكتبه الذي يعد ثاني أكبر المكاتب بعد مكتب خالي، فخم وأنيق، يمنح سلطة واضحة لمن يجلس خلف طاولته.

«هاي! تبدو مختلفًا هذه الأيام».

لم أنتبه لشرودي القصير حتى باغتني بهذه الجملة، وأنا أبحث عن طريقة للوصول لملف

المناقصة على حاسبه الشخصي، لم يكن يتركه مفتوحًا إلا وهو أمامه، وغير ذلك مؤمن بكلمة سر، ليس من السهل تخمينها.

«أعرف إن لديك مشاكل مع عيبر، حاول أن تصبر عليها، وأفهمها أنه يمكنكما اختيار إنجاز هذا الزواج أو تدميره، كل شيء متاح في حياتنا، وعلينا فقط اختيار السيناريو الذي نريد». ابترمتُ ساخرًا:

- وكأنها ستقتنع أو تستوعب حتى ما تقول!

أشار للكتاب الذي وضعه أمامي وقال:

- أقرأه كما أخبرتك، وستتمكن من إقناعها.

نهض من خلف مكتبه متابعًا:

- أحمدُ الله أنني لم أقع في مصيدة الزواج، فكثيرًا ما يكون الدليل الوحيد على فشل كل

النظريات الإنسانية الحديثة!

ضحك وهو يتجه للحمام الملحق بمكتبه، فتصنعت الضحك والأدريالين يضح بقوة في أوردتي، نهضتُ أتحرّك بحذر حول المكتب، ها هي الفرصة تلوح لي! كل إشارات القدر تؤيدني في تلك الخطوة منذ أن فكرت فيها، فلماذا أتردد؟ وماذا أنتظر؟!

اتجهت لحاسوبه الشخصي، دخلتُ صندوق بريده بسرعة، ومن ثم الرسائل المُرسلة، لم يكن صعبًا إيجاد النسخة المرسله من ملف المناقصة لخالتي، وجّهت إرسالها بنقرات سريعة صامتة للعنوان الذي أحفظه جيدًا، أنصت لصوت جريان الماء في الحمام، وأقول بمرح:

- لا يمكنني إلا أن أحبيك على فراستك!

حذفت الرسالة الأخيرة المُرسلة من القائمة، وأعود بسرعة لمقعدي، لكن عندما خرج رياض كنت لا أزال على بُعد خطوة منه، فقلت:

- عليّ أن أعود لمكتبي وإجراء بعض الاتصالات.

ابتسم وهزّ رأسه الأصلع الوقور، شعرتُ للحظة أنه يرمقني بدهاء، وإنه خمن ما فعلتُ، هل نصب لي فخًا؟

تابعتُ بمرح يخبي توتري:

- تعرف خالي! لا يتهاون في أمور العمل.

- لا تقلق، خالك يحبك كابن له، وعادةً لا نرى فيمن نحبهم سوى ما نود أن نراه.

تضاعف توتري، لكنني لم أجد ردًا، ابترمتُ وغادرتُ مكتبه ملوثًا بالغدر والخيانة.

كيف فعلتُ ذلك في رياض؟ كيف تتاسيتُ كل ما قدّمه لي من دعم ومساعدة طوال السنوات الماضية!

بل كيف أفعل ذلك بخالي وأضيع عليه تلك الصفقة!

أغلقتُ عليّ باب مكتبي وأمسكت برأسي العاصف بالأفكار! كيف تملكني الجشع والخسة لهذا الحد! رباه ماذا فعلت! ماذا فعلت!

كانت مواجهة ما حدث كابوسية، صدمة خالي بتسريب المعلومات، بالخيانة الواضحة، وخسارتنا للمناقصة، بدا وكأنه على وشك أن يصاب بجلطة، وعندما تمالك أعصابه، انفجر بغضب هادر كاد يطيح بكل من حوله في الشركة وأنا منهم، لكن غضبه في النهاية تركز على رياض، الذي لم يقبل تهمة الخيانة، وردّ بحدة:

- أنا أرفض مجرد تفكيرك في أنني أنا من سرّبت ملف المناقصة!

- كنتُ أشمّ رائحة الخيانة، ولم أعرف إنها سنأتي منك!

- مختار! انتبه لكلامك!

تدخلتُ أقاوم شعوري بالدنس:

- ربما الساعي أو السكرتيرة أو أي موظف في الشركة هو من سرق الملف، رياض لا يمكن أن يفعل ذلك!

هدر خالي:

- مازالت مسؤوليته! هو المسؤول الأول والأخير عن المناقصة وعن كل ما حدث!

شدّ رياض قامته، يتحكّم في الغضب على وجهه ويقول:

- معك حق، إنها مسؤوليتي، وسأتحمّل العواقب!

- هاه! سنتحمّل خسارتي للمشاريع التي صفتها كي أوفر سيولة! أم سنتحمّل الأزمة التي

ستخرج منها الشركة بمعجزة إن خرجت! أنت كل ما تستطيع فعله هو أن تستقيل وتترك الشركة

قبل أن أحولك للتحقيق!

- خالي! ماذا تقول!

التفت لي بشراسة:

- اخرس أنت الآخر، وإلا لحقت به!

رفع رياض يده يطالبني بالصمت، قبل أن يقول بنبرة متماسكة لم تُخفِ حزنه:

- سأترك الشركة يا مختار إن كان هذا ما تريد.

والتفت يغادر بقامة مستقيمة دون كلمة أخرى.

\* \* \*

«لكن ما الذي يمكنني أن أفعله لو ظل ذلك الخوف ينبض في جسدي.. بدلاً من القلب».

كتبْتُ جملة كافكا على ورقة صغيرة ثم مزقتها بانفعال..

اتسع المستنقع الدنس من حولي وأنا أحتل مكتب رياض، في البداية لم يصدق خالي أن رياض

سيترك الشركة حقاً، أعرف أنه بداخله لا يصدّق تماماً خيانتته، لكنه رجل عقلائي، ولا يصدق إلا

بالدليل، والورطة التي وقعت الشركة فيها أكبر دليل.

أنا أيضًا لا أصدّق ما ارتكبتُ، اكتشفت أن بداخلنا مساحة كبيرة لخداع النفس، أقنع نفسي بأنني لم أقم بذلك، أنكر ما فعلتُ، وأصدق أنني بريء، أنني مثالي ومرهف المشاعر، أقرأ الأشعار والكتب وأتأثر بكلماتها، لا يمكن لمتقف مثلي أن يفعل هذا! أنا مثل رياض وخالي لا أفهم كيف تسرّب الملف، يساعدني تعاطفي البالغ مع رياض في تصديق ادّعائي، أنا حزين لأجله، أفقده في الشركة، في مكتبه، فكيف أكون أنا من ارتكب هذه الخيانة؟ بالتأكيد لم أفعّلها.

«أراهنك إنه سينضم لشركة الشناوي!»

قال خالي بسخرية مُرّة، كنا في بهو الفيلا، تشاركنا عبير وزوجته الجلسة.

- لا أظن ذلك، رياض ليس خائنًا يا خالي.

قلتُ، فأيدتني زوجته:

- توقف عن عنادك يا مختار وكلمه، أنت تعرف أنه خطأ مثل أي خطأ، خطأ كبير.. كارثة صحيح، لكن لا تخسر من وقف بجانبك ونهض معك بالشركة، ولا يمكن أن يهدمها.

أشاح خالي بوجهه مبدئيًا عدم الاقتناع، لكن بدا واضحًا أنه يكابر.

- ادعه غدًا على الغداء وننهي الأمر.

اعتدلتُ متحفزًا في مقعدي أمام صمت خالي، غزاني القلق، اضطربت النسخة الدنيئة داخلي، يمكن أن يعود رياض كأنني لم أفعل أي شيء؟! أخسر منصبتي ومكتبي الجديد! وأعود كما كنتُ!

لا! لا يمكن أن أقبل بهذا!

قالت عبير متململة وهي تميل عليّ برقة:

- هل سنقضي بقية اليوم في الحديث عن العمل؟ اعزف لي شيئًا يا سليم، أتذكر الأغنية التي

عزفتها لي ليلة زواجنا؟

نظرتُ لها كأنها قادمة من كوكب آخر! أعزف الآن! لا تعرف أن مصيري كله مُعلق بالتغيير الذي يمر على ملامح خالي وهو يفكر في اقتراح زوجته، فمن يضمن لي إذا عاد رياض أنني لن

أكتشف؟ أنه لن يهدأ قبل أن يثبت براءته! أنني لن أخسر كل شيء!

قال خالي أخيرًا بحسم:

- لا يا ماجدة، ليس الآن.

أقلتُ أنفاسي أحاول إخفاء شعوري بالنجاة، لكنني ذعرتُ.. ذعرتُ وأنا أكتشف عمق الظلام داخلي.

بمرور الأيام هدأ غضب خالي، وطلب لقاء رياض في الشركة، لم أعرف ماذا دار بينهما في المكتب المُغلق، وأخذت أقطع حجرتي ذهابًا وإيابًا، حتى دخل رياض مكتبتي بعد طريقة صغيرة، ابتسم وتقدم للداخل يجول بعينه في المكان، تسمرتُ أفقد كلماتي، أشعر بالخزي من احتلائي

مكانه.

- ما الأخبار؟ أسمع أن الشركة تجاوزت جزءًا كبيرًا من أزمته بسبب مجهوداتك.  
قال وهو يجول قليلاً في الغرفة، وعندما بدأت الكلام قاطعني وهو يلتفت لي:  
- أتعرف يا سليم؟ لديّ ذاكرة قوية، تحتفظ بأدق التفاصيل، أعرف كل من دخل وخرج من هنا،  
غرفة مكنتي، وأتعرف أيضًا؟ أجيد كذلك ربط الأحداث.  
- عمّ تتحدث؟! لا أفهمك!

نظر لعيني من وراء نظارته الطبية المربعة وقال:  
- تعجّلت قليلاً، كنتُ سأرحل بأي حال، كنتُ سأرحل. كم عمرك يا سليم؟ لم تبلغ الثلاثين بعد؟  
وأنا أصغر منك بقليل كنتُ أعمل في بنزينة بالصباح وفي المساء «كاشير» في مطعم شعبي؛  
لأستطيع تجميع مصاريف زواج أختي الصغيرة، وأدوية أمي، فأنا يتيم أيضًا، لكنني لم أجد خالاً  
يتولى أمري ويدلّني مثلك، لم أحصل على فرصتي الحقيقية إلا بعد الثلاثين في شركة صغيرة،  
واجتهدت وتقلت من شركة لأخرى حتى عملتُ مع خالك منذ خمسة عشر عامًا، كبرتُ أمامي يا  
سليم، وتوليتُ تدريبك وإعدادك لتحلّ مكاني يومًا، فقط لم أعرف أنك ستعجل هذا اليوم.

ارتجّ علي، وقلت مضطربًا لا أعرف ماذا قال لخالي:  
- هذا غير صحيح.. أنت مخطئ! لا يمكن أن تظن أن لي دخلاً بذلك!  
ابتسم:

- كنت أودُ تصديقك يا صديقي، لكنني رأيت الغدر في عينيك، رأيتَه منذ اللحظة التي نحّاك  
خالك عن هذه الصفقة وأكلها لي.

- رياض! لا أسمح لك..  
- لا تخف، لم أخبر خالك، فلا جدوى من أن يُصدّم بك.  
- هذا كثير! لا يمكنني تحمّل سخافاتك أكثر من هذا! اذهب من هنا! من فضلك!  
رمقتني بنظرة أسف، وبسمة حزينة وغادر.  
لهنت أنفاسي وضاق صدري، خنفتني رائحة نتنة تملأ المكان.

\* \* \*

كل شيء يمكن وضعه على الميزان، أنت الذي يكيل ويختار الكفة الراجحة، أنت الذي يجعلها  
راجحة، تضع فيها ما تشاء، تُثقلها بأمانيك وأحلامك، تميل معها فترجح.. تظن أنك ربحت.. ولا  
تدري لأي درك أسفل شدتك!

بعد أقل من شهر مات رياض، علمت أنه كان مريض قلب، ولم يخبر سوى خالي في زيارته  
الأخيرة عندما أراد منه أن يعود للعمل، فرفض وقال إنه يريد أن يستريح ويعتني بصحته، لكن  
يبدو أن غدري به كان أقوى من محاولاته للحفاظ على صحته.. فمات بأزمة قلبية مفاجئة في

منزله.

استمرّ خالي في صرف مرتبه مع زيادة كبيرة، ويرسله لأمه كل شهر، ليريح ضميره.  
وأنا كيف أريح ضميري؟ لم يفهم أحد سر صدمتي وألمي البالغين لوفاته، لم يرَ أحد المستنقع  
القدر وهو يبتلعني، ويوجه لضحيتي الضربة الأخيرة، قتلته بخيانتني.. بظلمي له.. بأنانيتي وجشعي  
الحقير لأحتل مكانه!

لم يفهم أحد!

«اقرأ هذه الكتب، فمثل هذه النظريات هي التي جعلتني أصبر وأتحمل، وأصدق أنني يوماً  
سأغير حياتي وأصل لما أريد، وقد فعلت».

لم أجد ما ينتشلني من ظلامي إلا كلامه وكتبه التي تملأ مكتبه، مكتبه الذي سرقت منه، بثُّ مثله  
أريد أن أتمسك بشيء، بأمل يُخبرني بأنني لست مجرمًا، وأني قادر على إصلاح ما فعلت.  
أحببت الفضاء السخي الذي أخذتني إليه تلك النظريات، جذبتني فكرة التغيير، والسيناريوهات  
المختلفة، لعلي أجد طريقي يوماً، لسيناريو لستُ مذنبًا فيه، سيناريو لم أتسبب فيه بموت رياض.  
ورغم كل محاولاتي، بقي شيء واحد لا أستطيع تغييره، عبير، ما أن ألقت نظرة واحدة على  
البيت الجديد حتى هاجت وماجت، وأعلنت رفضها لكل ركن فيه، وأصرّت على العودة لمنزل  
أبيها، حينها قررت أني لن أعود معها، ولن أعود لها.

بقيتُ في المنزل الجديد، أحببته وأحببت الكومباوند وغرفة الموسيقى وحمام السباحة، بدا وكأنه  
المكان المثالي الذي كنتُ أبحث عنه، شعرت بأن الحياة تمنحني بعض العزاء، وأن رياض قد  
يكون سامحني.

إكرامًا لخالي ذهبْتُ لإقناع عبير بالعودة ومواصلة الحياة بيننا عدة مرات، لكن بلا جدوى،  
وأصرّت على بيع البيت وشراء بيت جديد، مماطلة أخرى لنظل مع والديها، لم أتحمل أكثر،  
خاصةً بعدما قررتُ أنه لا تمثيل ولا خداع في حياتي مرة أخرى، لا أستطيع حب عبير، وأشك بأن  
والديهما نفسيهما قد يلومانني، ورغم كل حرج الموقف؛ أخبرت خالي أخيرًا بأنه لا بد من الطلاق،  
وتركته فترة يستوعب الصدمة.

ثم التقيت بها، ليلي، أجمل وأرق ما يمكن للمرء أن تقع عيناه عليه، لا يمكن أن يكون توقيت  
أول لقاء لنا مجرد صدفة، وأنا أنشد بداية جديدة ومختلفة لحياتي، فتجلّت هي أمامي كأنها تضع في  
يدي أجمل البدايات، رغم صغر سنها وعلاقتها المضطربة بوالديها، كانت تتسرب داخلي يوماً  
وراء الآخر، عرفت في اللحظة التي نظرت فيها لعينيها؛ كيف يكون الفضاء الكوني الفسيح الذي  
أقرأ عنه، عرفت معنى الطاقة التي ينقلها لك شخص آخر بمجرد وجوده معك، فاجأني كل هذا في  
البداية، كنتُ أذكر نفسي بأنني لستُ حرًا بعد، أنني يجب أن أغلق تمامًا صفحتي مع عبير قبل  
الدخول في أي علاقة أخرى، لكنني لم أستطع.

بالرغم من كرهى لكونها ابنة سوزى رفعت، تلك المرأة الرخيصة المبتذلة، ومحاولاتي لتوخي الحذر معها في البداية، لم أنجح في ردع انجذابي لها.

ألقاها؛ تتنبه حواسي وتتوهج، تأسرني عيناها، فأسبح في بحر من الفيروز، ويضمني عشب أخضر، ألمس فيها نفساً عذبة، وروحاً نقيّة، وحيدة.

أحببت وجودها معي طوال اليوم، في الشركة وفي المنتجع، نلتقي في غرفة البيانو أو في حمام السباحة، أحكي لها ما أقرأ، ونتشارك كل شيء، حتى بات اليوم الذي لا أراها فيه وتقضيه عند عمته، يوماً مبيتاً، لا حياة فيه، إلى أن تشرق عليّ من جديد، تأتي لي، تقف على عتبة مكتبي كندى مُعطر على بابي، تنتظر لي فأعرف كم تحتاجني.. كم تحبني.. وأدرك أنني علقت في سمائها للأبد.

أحببت دور المعلم والمرشد لها، لا أنكر، أعجبتني صورتني التي أراها في عينيها، والرسائل الصغيرة التي أنتقيها وأكتبها لها في كل لقاء، تتشرب مني كل ما أقرؤه، كل ما أحبه، فلعلها التلميذة الوحيدة التي قادت معلمها لنور لم يره بداخله.

سألنتي يوماً عن سر حبي لكلمات كافكا على الأخص.

- لا أعرف بالتحديد، ربما جذبتني تناقضات حياته العجيبة، رغم أنه يُعدُّ واحداً من أهم الكُتاب الألمان بل وفي التاريخ الإنساني، إلا أنه لم ينشر في حياته سوى القليل من أعماله، وأوصى صديقه المقرب بالتخلص من كل أعماله بعد وفاته، لكن لحسن الحظ لم يستجب لوصيته، وإلا ما حصلنا على هذه الثروة الأدبية والإنسانية الرائعة.

- غريب، لماذا أراد هذا؟

- لم تكن حياته سعيدة أو مستقرة، لاسيما مع والده، جمعتهما علاقة متوترة جافة، تركت في نفسه أثراً بالغاً، انعكس في كتاباته السوداوية البديعة، لكن انعكس أيضاً في رؤيته لنفسه وتقديره لذاته.

نظرت لي مضطربة، أعرف أن الكلام يمسخها بطريقة ما، التقطت نظراتها بحنو:

- أشياء كثيرة، عظيمة ورائعة، يمكن أن نفقدها بسهولة لأننا لا ندرك قيمتها، أو قيمة أنفسنا، ربما ليس من السهل أن نتخلص من كل الآثار المؤلمة التي يتركها الأهل فينا، لكن علينا أن نؤمن بالقوة داخلنا لنحصل على كل السلام الذي نتمناه، السلام يأتي بالقوة وليس بالاستسلام للضعف.

ابتسمت متوترةً، ومضت لحظة صمت قبل أن تسأل:

- أتعيش مع والديك؟

ابتسمت مطرفاً:

- أمي فقط، والدي تُوفى منذ سنوات طويلة.

- أنا آسفة.

هزرت رأسي أتمنى لو يمكنني مصارحتها بالحقيقة، الأمر الذي يزداد صعوبة كل يوم، ومع

تصاعد تعلقي بها وخوفي من خسارتها.

«أهكذا يكون عناق الملائكة؟ أومن بأني لو بقيتُ أكثر في حضنك؛ لتحولتُ مثلك.. لشعاعٍ صافٍ من النور».

كانت أول مرة أضمتُها لصدري، كانت تتبض وتذوب بين ذراعي، وتوقظ نسخة قديمة داخلي بكل رغباتها، يضربني فيض من المشاعر البركانية، يفتتني العُشب الندي في عينيها، وملامحها المغربية، ارتباكها البريء، عبير عنقها المُسكر الذي يغمرنى بنشوته، فلا بد أن نشوة كهذه هي ما كانت تمحو عقل فتى روائية «العطر» فيرغب في الاحتفاظ بعطر فتياته للأبد!

أردتها بكل الطرق، لكن كان عليّ تذكير نفسي.. كم هي بريئة.. صغيرة، وعليّ الالتزام بالصورة التي تراني بها، فأجبر على التراجع ومقاومة كل أفكارى المحمومة نحوها. أنتشي بنسختي المثالية.. وأهنئ نفسي.

بقيت ذكرى ذلك العناق وحده؛ تحمل أكوأنا ومجرات داخلي على التفتح والازدهار، تردم كل الثقوب السوداء، ولا تُبقي إلا وهج حرارة لذيذة، تلتهم أعماقي. لم أظن يوماً أن حب امرأة قد يُطهرني، يُشبع روحي، ويُضفي لحياتي هذا الوهج، فيزداد إيماني بأنني اخترت طريق سعادتي.

\* \* \*

بالرغم من ثقتي في موقفي، انتابني بعض القلق وأنا في طريقي لمنزل خالي كما اتفقنا، فالمأذون سيكون هناك بعد دقائق، وسننهي كل شيء، لا أعرف كيف سيؤثر ذلك على منصبى في الشركة، والأهم لا أعرف كيف ستغفر لي ليلى إخفائي عنها هذا الأمر، لكن ما أعرفه أنني لن أتركها حتى تفهم وتغفر، أثق دون ذرة شك بأننا سنتجاوز هذا الأمر بسبب كل الحب الذي نما بيننا، فنحن مقدران لبعضنا تمامًا، كأى حقيقة كونية ترسخ وتستقر أخيراً في الوجدان.

حينما دخلت منزل خالي كنت أتوقع الوجود والحزن بسبب إجراءات الطلاق، لكن بدا لي الأمر مبالغاً فيه ببكاء أمي وأمها، حتى خالي كان شاحباً ومنهكاً.

لم يردّ أحد تقريباً على تحيتي، وبدا الجو متوتراً بشدة، فسألت مضطراً:

- ألم يصل المأذون بعد؟

رمقتني أمي وزوجة خالي بنظرة مزيج من الحزن واللوم، وقال خالي بصوت مُتعب:

- فلنحدث في مكتبي يا سليم.

وقفت زوجته تهتف والدموع على وجهها:

- بل كلمه هنا أمامنا! كان علينا أن نخبره منذ أسبوعين منذ أن عرفنا! وأنت الذي رفضت..

فحلّها الآن!

رمقها خالي بنظرة صارمة، لكن حتى عيناه كانتا مكسورتين.

- ما الذي يحدث؟ عمّ تتكلمون؟

سألت أقاوم خوفًا مبهمًا يزحف نحوي، فنحن نلتقي في الشركة كل يوم، ربما كنتُ أتعهد أن يكون حديثنا عن العمل متجنبًا للتطرق لموضوع عبير، لكن لا أظن أن هناك أي شيء قد يقوله أحدهم، يجعلني أراجع عما أنويه، أنا هنا لمهمة محددة وسأنفذها مهما حدث.

- عبير عندها المرض اللعين يا سليم! «كانسر» في الأمعاء! حزنها لطلاقكما جلب لها المرض!

صرخت زوجة خالي بالجملة، وانخرطت في البكاء هي وأمي، بقيتُ واقفًا أنظر إليهما كأني في وهم أو كابوس.

عندما وضع خالي يده على كتفي أجفلتُ.

- لن أجبرك على شيء يا سليم، لكن أرجوك رجاء أب لك قبل أن يكون لها، أجّل مسألة الطلاق حتى ينتهي العلاج، كل شيء يعتمد على حالتها النفسية، وهي لا تتوقف عن الحديث عنك منذ أن عرفت، ماذا ستفعل؟ ماذا ستقول؟ وهل ستتركها؟ تسألني كل يوم يا سليم.. ترجوني أن أطلب منك.. ألا تتركها.

أخذتُ وقتًا طويلًا حتى استجمعت شتاتي، أشعر بأنني خارج دائرة الوعي.

- ما.. ما درجة خطورة الحالة بالضبط؟ وما مدة العلاج المتوقعة؟

- الطبيب يقول إن الحالة ليست متأخرة، والعلاج قد يأتي بنتائج مرضية، لكن لا شيء مضمون، يجب متابعة البؤر السرطانية والتأكد من عدم انتشارها، الطريق طويل يا سليم لن أكذب عليك.

بقيت مسمرًا مكاني حتى قالت أمي:

- اذهب لها يا حبيبي، إنها في الداخل تنتظرك، تريد أن تراك، قالت إنها لن تتحمل أن تحضر اجتماعنا ونحن نخبرك بالأمر، لكن أوصتنا أيًا كان قرارك أن تذهب لرؤيتها.

كان هذا آخر ما أريده في تلك اللحظة، اللحظة التي تدمرت فيها كل آمالي.. كل حياتي القادمة، كان يجب أن أبقى وحيدًا مع نفسي لأفكر، أفكر كيف يمكنني منع هذا الدمار.

لكن خالي أخذني من يدي لغرفة عبير، فتحركت معه بلا إرادة، كأنه يد الحياة التي تتلاعب بي كيفما تشاء.

- سليم، أنا تعبتُ من العمل والصراعات ووجع القلب، وأريد التفرغ لبيتي وابنتي، سأجعلك تدير كل شيء، وسيكون هذا رسميًا، وليس مجرد وعد بين أب وابنه.

نظرت له لا أستوعب ما يقول، وفيما يتحدث! كان هذا آخر ما أفكر فيه الآن!

تركني أمام بابها وتراجع خطوتين، فوضعتُ يدي على مقبضه أفتحه مكرهاً وأتقدم للداخل.

ما أن رأيتي عبير حتى هرعت نحوي تُلْفُ عنقي بذراعيها وتقول منتفضة:

- كنت أخشى أن ترحل ولا تراني! أنت لن تتركني يا سليم.. لن تتركني! قل لي أخبرني!

في اللحظة العابرة التي رأيتها فيها قبل أن تتدسّ بين ذراعي لم تبدُ مريضة أو مختلفة شكلاً، لكن هذا التوسل في كلماتها هو الذي كان شديد الاختلاف لي، ولأبيها الواقف أمام الغرفة، كأنه يتأكد أنني لن أنطق كلمة تضر بابنته.

قاومت.. جاهدت حتى أنطق بخفوت:

- نعم.. لن أتركك يا عبير.

انفجرت بالبكاء على صدري، وأنا جامد مكاني أرى حياتي كلها مقلوبة رأساً على عقب.

\* \* \*

ما الخطأ الذي فعلته؟

ما الخطأ الذي قمتُ به لتأخذ مني الحياة ليلي؟ ما معنى هذا؟! أتهدأ بي الحياة؟ تعبت بي!

كل ما ظننته قبولاً وغفراًناً انقلب مكرّاً وخداعاً!

القدر لم يهبني أي هدية، ورياض يضحك مني شامتاً!

أم لأنني أحببتها أكثر مما يجب؟ لأنني دون أن أشعر لم أعد أتصور حياتي دونها؟ أعرف، قرأت وحفظت؛ أن التعلق الشديد وإعطاء أهمية مبالغة لشيء ما أو شخص ما يولد طاقة من الخوف والحرمان، فيعيش الشخص الحرمان الذي خشي منه؛ لأنه لم يفكر إلا فيه، حتى توجه له قوى التوازن لكمة حاسمة تعيده لوضعه الطبيعي، فهل هذا ما فعلتُ؟

أم إن ليلي اختيار خاطئ من البداية سرّت وراءه معيماً بمشاعري؟ لا! ليلي كانت موجة نجاح في حياتي تأخذني لخط حياة أفضل، خط مليء بالنجاح والسعادة، وتمسكتُ بها.. لشد ما تمسكتُ بها حتى انهار كل شيء.. فهل أخدع نفسي؟

لكنني أريدها.. أريدها حتى لو كانت تحمل كل احتمالاتي الفاشلة، أريدها.

أيمكن أن أطلب من ليلي الانتظار حتى تُشفى عبير؟ أو يمكنني الإفلات من عبير إذا ما أتى العلاج بثماره؟ أيمكنني حينها أن أقول لخالي ها هي ابنتك بخير فاسمح لي أن أطلقها الآن؟ هل سأبقى مديراً للشركة حينها؟ هل سأبقى في الشركة بالأساس!

ها هي جذوة الطمع التي رماها بداخلي تشتعل وتوقد ظلامي من جديد!

ألف سؤال وألف احتمال دار في ذهني، أيام طويلة بدت لي كالبرزخ الذي يفصل بين حياتين، بفارق أنني لم أمت لأذهب لحياة أخرى، ولكن أخرج من حياة لأذهب لموت لا ينتهي.

«جبان.. أنت جبان! لم تجرؤ أن تُخبرني بنفسك يا جبان!»

صرخت ليلي بي، ولم أنكر، عجزت عن إخبارها.. إني مُجرم.. وإني عالق.. وإني أريد الصراخ حتى أشقّ السماء! نعم كنتُ جباناً، لا أستطيع مواجهتها، لا أقوى على تركها، على هدم كل الحب الذي بيننا، ولا على تكرار جريمتي وأدع عبير تموت بسببي.. تموت مثل رياض.. لم أعد سليم القديم، ولا سليم الذي أحببته، بتُ مُسحاً.. أضحوكة القدر.. الذي لا يقوى على مواجهة

\* \* \*

عدتُ للعيش مع عبير بشكل غير منتظم، أذهب معها لجلسات العلاج، أحاول أن أمنحها الحب والدعم الذي تحتاجه تحت أعين أسرتي بكاملها. لم أكن أعرف كيف أستمّر في حياتي دون الخطط الكبيرة التي خطتها مع ليلى، وكل الأمور التي كنتُ سأفعلها مع ليلى.

عشتُ لأول مرة شهورًا دون خطة، دون إحساس، أحاول إقناع نفسي كل لحظة.. ليلى ليست مُقدّرة لي.. ليلى ليست حياتي.. لكن عجزت أن أصدق.. عجزت أن أقتنع. بدا كل ما أوّمن به عاجزًا عن هزيمة مشاعري نحوها واحتلالها روحي، وكأنّ إيماني لا يكتمل إلا بوجودها.

ثم عرفتُ بخبطتها لهشام.. هشام! كرهته كما لم أكره أحدًا من قبل! هو من سرق حياتي.. ظهر فيها فجأة فقط ليأخذ ليلى مني.. أعرف هذا النوع الذي يمتصُّ طاقة الآخرين.. رياض أخبرني عنهم، يظهرون فجأة، يسرقون أحلام رفقاتهم وينالونها هم! كيف لم أنتبه له؟ كيف سمحتُ له بدخول خط حياتي مع ليلى؟ هشام سرق حياتي! هو السبب في كل شيء!

انقلبت الدنيا عليّ فجأة، وانتزعت مني كل ما أحببته أمرًا يلي الآخر، حتى شركتي الصغيرة؛ كان عليّ تصفيتها للتفرغ لإدارة شركات خالي، ألمني ذلك أكثر مما توقعت، فهنا عملي الخالص، طموحاتي، أيامي مع ليلى وأحاديثنا وحبنا، كل ذلك سينتهي أيضًا.

بتُّ أمضي آخر أيامي فيها، حتى تلك الليلة، غادر آخر الموظفين، وبقيتُ في المكتب وحدي، لا أريد الذهاب لمكان ولا العودة لمنزل خالي الذي بنتنا نقيم بشكل شبه مستمر مرة أخرى، كما لا أطيق البقاء في المنتجع الآن، لا أريد أن ألقى بشرًا، فزفاف ليلى غدًا، هكذا بكل بساطة لن تعود لي أبدًا! لماذا التقيتها إذن؟ لما خدعتني الحياة وجعلتني أحبها كل هذا الحب؟ فقط لأكفر عن ذنبي بكل هذا الألم؟!

«أكثر ما يُوجع قلبك أن الحياة دائمًا تمنحك الأشياء الجميلة في الزمن الخطأ.. وفي المسافة الخطأ.. وفي العمر الخطأ أيضًا!».

كتبت كلمات جبران خليل جبران على ورقة ومزقتها كعادتي القديمة، فلم تعد هناك ليلى تحفظهم لي!

«أيمكن.. أن نتحدث؟».

أتاني صوتها بغتة، كمطر خفيف يسقط على صحراء قاحلة، انتصبّت واقفًا أحرق إليها، تقف على باب مكنتي، والحياة تعود لتجري بانديفاع في عروقي بقوة ولهفة، لا أدري أهي حقيقة أم هذيان مجنون!

كانت بثوب لم أرها به من قبل، أخضر شاحب بفتحة عنق مربعة واسعة، مكشوف الذراعين، تلمع بشرتها العاجية بإغواء ناعم، لتبدو أكثر فتنة من أي خيال، كدت أوقن بأنني أهذي وأنا لا

يمكن أن تكون هنا.. الآن.. وزفافها بالغدا!

- لا أريد منك سوى.. معرفة الحقيقة.

قالت وهي تتقدم نحوي بكامل سحرها، وبدأت أستجمع شتاتي، وهي تتابع متوترةً:

- هشام أخبرني.. كنا نجهز دعوات الفرح فسألته عن دعوتك! كنت أريدك تحضر فرحي يا

سليم لعلني أرى الندم في عينيك ولو لحظة! فأخبرني عن.. مرض عبير.

ونظرت لعيني منفعلةً متوترةً متشابكة اليدين، تسألني:

- ألهذا تركتني؟ أخبرني بالحقيقة أرجوك!

تنفست بقوة وقلت كأنني أزيح جبلاً من فوق صدري:

- نعم يا ليلي، نعم، لهذا اضطررت أن أتركك كما فعلت.

أخبرتها بكل شيء، عني وعن خالي وعن يوم الطلاق، كأنني لا أستطيع منع نفسي من الكلام،

لا أدري متى سيمكنني مجددًا إخبارها بكل هذا إن لم يكن الآن.

- لم أعرف ماذا أفعل، لكن.. لم يكن بإمكانني أن أتخلى عنها وعن خالي.

نكست رأسها بحزن كبير، وتصاعدت مشاعري واحتشدت في قلبي، احتجبتُ إرادة جبارة كي

أبقى مكاني ولا أقترب منها، وقد عانيتُ الأمرين لأتقبل ابتعادها، وأعرف أنني إن بدأتُ في

الاستسلام لضعفي تجاهها، لن أتمكن من تجاوز انتزاعها من جديد.

- ألا يوجد حل يا سليم؟

سألته بصوت مختلج؛ لأدرك أنه يمكنني أن أنهار مكاني رغم المسافة بيننا، خفق قلبي بألم..

نبض رأسي بألم.. اختنق صوتي مع أنفاسي أحرق فيها بعينين دامعتين جامدتين.. هل أدمر حياتها

هي أيضًا؟ أستسلم لأنانيتي وأستغل مشاعرها الآن في هذه اللحظة، أطلب منها أن تترك كل شيء

فعلًا لأجلي، لأخذها لحياة لا أعلم إلى ماذا ستنتهي ولا كيف ستسير؟

- لا عليك! يبدو أنني أخطأت.. في القدوم إلى هنا.

ألقت الكلمات بسرعة بنبرة غاضبة مجروحة، واستدارت مبتعدة، تحركتُ دون أن أفكر، لحقت

بها، أمسكت ذراعيها الناعمين أديرها إلي، وتحولت حياتي لقطع صغيرة لا قيمة لها، غرقتُ في

عينها أنسى كل كلماتي وحُججي المنطقية، أستعيد الوهج الذي يبثه في وجودها..

لم لا نتزوج سرًّا؟ لم لا أستغل قدومها إلي الآن وأجعلها لي وأفسد زفافها؟ أعرف أنني يمكنني

الضغط عليها، إنها لن تقاومني كثيرًا.. وإنها تحبني كما أحبها! فلم أسمح بخسارتها دون حرب!

- أحبك يا سليم.

دمرني همسها، الضعف البريء في عينيها، انتظارها لأخبرها بجل سحري يجمعنا معًا. انسابت

يدي من أعلى ذراعيها حتى أمسكت بكفيها، أرفعهما لشفتي بقبلة حارة دامعة، أدرك أنه لا يمكنني

أذيتها، إن نسختي الدنيئة تتمحي أمامها.

- ليلي.. سامحيني، لا أريد تدميرك معي.. لا أريد خداعك.  
شدت يديها والدموع تنهمر من عينيها بانفعال:  
- بل لا تريدني أنا! ولم تحبني أبداً!  
- لا!

لم تصدقني، جرّت.. هرولت نحو الباب تنزل السلالم مبتعدةً عني، لحقتُ بها، توقفتُ على الدرجات الأولى.. ونحيبها يطعن قلبي، لا شيء لديّ لأمنحه لها، لا شيء سوى مزيد من الألم والخداع والخذلان، فحياتي لا شيء.. لا شيء.  
لم أدر كم ظللتُ نادماً على تفويتي تلك الفرصة، وكم من أفكار شيطانية سوداء احتلتُ رأسي لأيام وأيام أخطت لإفساد زواجها وحياتها، لأستعيدها مجدداً. عشتُ فاقد التوازن لوقت طويل بعد إتمام زواجها، كنت أعيش وأحاول أن أنظر بأنني لست في الحياة في نفس الوقت، فمواجهة كل ما فقدته أكبر من قدرتي على التحمل.

\* \* \*

تحركت عبير لتضع رأسها على كتفي وتلتصق بي، فربتُ على كتفها مطمئناً:  
- ستكون النتائج سارة غداً لا تقلقي.  
رفعت رأسها لتتظر لي والخوف يملأ عينيها:  
- إن لم تكن جيدة؟ وإن أظهرت التحاليل انتقال البؤر لمنطقة أخرى ليس إلا كالمرّة الماضية ماذا سنفعل؟! أنا لن أخضع للعلاج من جديد يا سليم! لن أعرض نفسي لهذا العذاب! فلأمت بدلاً من أعتب نفسي بلا جدوى!  
كانت رقيقة الملامح عسلية العينين، تربط رأسها بإيشارب ملون لا تُحب مظهر شعرها الخفيف والقصير جداً بعد العلاج الكيميائي الطويل.  
- حبيبتي أخبرتك كثيراً من قبل بألا تفكري بطريقتك هذه، لا تضعي كل التخيلات السلبية في رأسك وتؤمنني بأنها ستحقق، اهدئي وتفاعلي وسيكون كل شيء بخير.  
غمرت الدموع عينيها وقالت بحرقة:  
- لو كان بك ما بي ما فكرت بهذا الهدوء!  
تنهدت وجذبتها تبكي على صدري بدلاً من الوسادة، وتركتها حتى أنهكت وخلدت للنوم.  
لم يكن هناك أصعب من أن ألمم شتات نفسي المحطمة من جديد، وكأنه عندما تصل مبكراً لليقين، تقضي بقية عمرك في تدميره.

غرقت في الكتب والقراءة وكل وعود التغيير، كان عليّ إعادة ما انحلّ مني وبناء خط حياة جديد مثلما فعلت ليلي وبنيت حياة جديدة من دوني، حتى لو خط هس.. بلا أساس متين، كنتُ أحتاجه لأواصل مسيرة الحياة، فقد يكون لدينا خيار نوع وطريقة الحياة التي نريدها، لكننا نملكه

فقط لأننا مُجبرون على الحياة نفسها.

جاءت النتائج في اليوم التالي رائعة لدرجة عجزنا عن التصديق، تهلل وجه عبير أخيراً واستردَّ بعضاً من رونقه لمجرد بُسرى الشفاء، وفي خلال أيام وضعت خطاً سريعة للسفر والتجوال حول العالم، وساعدها خالي والسعادة تدفع الدموع لعينييه، يراها تضحك وتفرح من جديد. سافرت معها لا أملك خياراً سوى محاولة أن أكون سعيداً، وأن أحاول أن أحبها من جديد، أشعر بتعاطف كبير معها، وأقدّر كل ما عانته أمام عيني، لكن بدت هذه المشاعر عصية على أن تتحول لأكثر من ذلك.

ورغم كل العاطفة التي أظهرتها لها حين تقاربنا أخيراً كزوجين طبيعيين، وصل إليها تباعدي النفسي منها، لم أكن أريد أن تتوتر علاقتنا من جديد أو تشعر بفتور عواطفى تجاهها، كنتُ أريد فعلاً منحها الحب والسعادة اللذين تستحقهما بعد ما عانته، وبعدما ظلت على حبي، بل وأحبتي أكثر بعد أن بقيت بجوارها في محنتها، لكن لم أنجح كما أريد، وعاتبتي فجأة على رغبتى القديمة في الطلاق، كأنها لم تنسَ أبداً. صمتُ حينها ثم قلت بهدوء:

- كان هذا قراراً مشتركاً منا معاً وليس مني وحدي.

- بل منك وحدك! أنا كنتُ أحبك.. دائماً أحبك وأنت من لم تستطع أن تحبني! منذ أن فتحت عيني على الدنيا وأنت أمامي يا سليم، وأنا أطوف حولك ولا تلاحظ وجودي كأكثر من أخت صغيرة لك! كنت مهووسة بك وأخبر كل صديقاتي عنك، لم يخف هوسي عندما كبرنا، بل أزداد! لم أصدق عندما طلبتني للزواج، فكرتُ أخيراً بأنك شعرت بي وتحبني كما أحببتك سنوات عمري كله، لكن اكتشفت أنني كنتُ مخطئة، وأنت لم تحبني ولم تُطِق العيش معي، وانتهزت أول فرصة لئنفصل كأنني لا أعني لك أي شيء!

وبدأت في البكاء، ترددتُ قبل أن أقترب منها أخذها بين ذراعي برفق وأقول:

- هذا ليس صحيحاً، لم أكن أعرف وقتها أنك متمسكة بي فعلاً، على أي حال كل هذا انقضى، ونحن معاً الآن.. نحن معاً.

- أنت لم تبقَ معي إلا بسبب أبي ومرضي! لكنك لا تشعر بي! لا تعرف إحساس أن يمر هذا السم في جسدك، وبالرغم من هذا العذاب لا أفكر إلا لماذا لا يصل حبي لقلبك!  
كذبتُ بثقة:

- غير صحيح.

وأمسكت كتفيها أنظر لعينيها بثبات وأقول:

- أنت زوجتي يا عبير وابنة خالي، وأحبك.

- تُحبني؟ تُحبني فعلاً يا سليم؟

أعدت رأسها لحضني وتمتمتُ:

- بكل تأكيد.. بكل تأكيد.

وبعد أقل من عام عاد المرض من جديد لينهش جزءًا آخر من جسدها.. ومن عمري.  
لسنوات استمررنا في نفس الدائرة يختفي المرض ويعود، حتى قرّر خالي الانتقال لأمريكا  
ومتابعة علاجها هناك، افتتح فرعًا صغيرًا للشركة بأمريكا يدير أعماله من خلالها، وكان من  
الطبيعي أن أحذو حذوه دون اعتراض، ولم يكن بوسعي الاعتراض، بوسعي فقط أن أكتّم تمزّق  
روحي وأنا أعرف أنني لن أرى ليلي وسلمى ثانية ولو صدفة.

سلمى! أسمتها سلمى رغم كل شيء، فما نسبة أن تكون مجرد صدفة! سليم.. سلمى، كيف لا  
يطرب قلبي لهذا، كيف لا يواسيه؟ فهذا وحده يخبرني بأنها لن تتساني بعد الآن. كانت رؤيتهما معًا  
أكبر مصادر بهجتي، نلتقي صدفة عند المصعد أو قرب الحديقة، فتنظّهر بعدم رؤيتي، أبتسم  
للصغيرة فتبادلني الابتسام ببراءة، تملؤني السعادة والوجع. أعرف أنها كان يجب أن تكون ابنتي  
أنا.

وجودهما بالجوار هو ما يمنح روحي الوهج، والطاقة على الاستمرار والمواصلة، تساعدني  
رغبة عبير في الابتعاد عن حماية خالي الزائدة لها في فترات نفاستها، تلك اللقاءات الخاطفة بهما  
ولو دون كلام مصدر حياة لي، لم أعرف تأثير فقده إلا حينما ابتعدت تمامًا، وابتلعنتي غربة أثقل  
مما ظننت.

\* \* \*

- وأنت يا سليم، ما أكثر ما يُضايقك في الغربة؟

نظر لي صديقي مُطلقًا سؤاله الذي دار على الجميع، فابتسمتُ أتظاهر بالتفكير، كانت جلسة  
أصدقاء حميمية في مطعمنا المعتاد، بحي هادئ في نيويورك. ووسط الإضاءة الناعمة، وضجيج  
الأحاديث الودودة، أخذ الحنين رفقائي فانطلقوا يتحدثون عن افتقارهم للأهل والوطن، وتحديات  
الحياة في أمريكا، على الرغم من أن جميعهم ناجحون في عملهم، لكن تبقى الغربة في القلب،  
بسكون زائف، تهيج وتنطلق من لمسة حنين واحدة.

- كل شيء.

نطقتُ باختصار لينفجروا ضاحكين.

- المختصر المفيد كالعادة من سليم باشا!

- كفاك جحودًا، على الأقل أهلك هنا معك!

هتف أحدهم باتهام مازح، فهزرت رأسي وتمتمتُ:

- معك حق.

انتقل السؤال لغيري وتبادلوا الضحك والذكريات، قبل أن ينفصّ جمعنا ويذهب كل منا لبيته.

كان الظلام يخيم على المنزل عندما وصلت، فعرفت أن عبير نامت، بدلت ملابسها محاذراً أن أوقظها قبل أن أستلقي في مكاني من الفراش.  
ابتسمت بسخرية مرة، وبعد لحظة تردد تناولت هاتفي، ولبسات معدودة وصلت للصورة التي أريدها، أتأملها..  
الغربة هي.. ألا أكون معك.

\* \* \*

مرّت السنون، وعلاقتي بعبير تضرر كصحتها، حتى تحولت علاقتنا لواجب إلزامي ومساندة، وجرح غائر مفتوح، يقيدنا معاً، ويشقينا معاً، حتى قابلت وهمي الخاص، وخالصي الزائف.  
«إلهام».. ما أن وقع بصري عليها أول مرة، تتقدم نحوي بشعر أسود ناعم وعينين خضراوين، بخصر نحيل يتمايل برقّة وهي تسير، كأنها نسخة من ليلي! كاد قلبي أن يتوقف. صديق مشترك لزوجها الراحل عرفني عليها، أخبرني بأنها بحاجة للمساعدة لتعثر على عمل بعد وفاة زوجها، كي تتمكن من البقاء هنا في أمريكا ولا تعود لمصر، فالحياة هنا كما تقول أفضل في كل شيء، صحة وتعليم ومناخ. التقينا عدة مرات، تزورني في مكنتي ويدها صغيرتها، تهل عليّ بذكريات غالية، خلقت حميمية تصاعدت سريعاً بيننا، نتبادل الحديث وهموم الغربة، حتى وجدت لها عملاً، لكنني تعلقت بها وب«لين»، تطورت علاقتي بهما لزيارات سريعة في المنزل لأطمئن عليهما، بالكاد أشرب فنجان قهوة، أتحدث مع صغيرتها لين وأغادر، وكل مرة الشوق في عينيها يزداد، ويجعلني أراجع عن قراري في عدم الذهاب لهما، خاصة بعدما استقرت أمورهما، ولا تحتاجان لمساعدتي.  
تركت نفسي أتعلق بها وهي تتعلق بي، لا يهمني أي نسخة هي التي تقودني معها، كل ما ملأني رغبة حارقة في علاقة مع امرأة أشتهيها، امرأة لا أخشى أن تتألم مع كل لمسة مني.  
حتى أنت الفرصة ذات صباح يوم عطلة، بعد ليل طويل تركت فيه ليلي في أحلامي وعلى وسادتي، وتركت عبير وشعوري بالواجب غافياً بجوارها. لم أفكر كثيراً وأنا أنطلق بسيارتي، أعرف إلى أين أتجه، توقفت أشتري حلوى وزهوراً، وذهبت لشارع ستاينواي، المعروف بشارع العرب، والذي تدبّ فيه حياة مختلفة، بمحلاته ومقاهيه ولغته وناسه، حياة توقظ حنيناً موجعاً، عذباً في عذابه.

على مسافة قريبة منه كان البيت الذي أنشده. مبني بسيط بمناشر خارجية، وبوابة حديدية. صعدت طابقيين بسرعة، أسابق ترددي وأطرده، فتحت لي إلهام بعد طرقة مختصرة كأنها كانت تنتظر قدمي، منذ أن عرفتها وهي تُشعرنني في كل زيارة لمنزلها بأنها كانت تنتظرني، وأني تأخرت عن موعد ما بيننا.

دعتني للدخول بابتسامتها المرحة، والشوق في عينيها يضرب وتراً فيّ.

- أين لين؟ أمازالت نائمة؟

سألتُ أتقدم للداخل، كانت شقة صغيرة، من غرفة وصالة، مؤسسة ببساطة ولبمسات مصرية، مفارش شرقية مشغولة، وقطع فنية تمثل المساجد والأهرامات وفانوس رمضان. أحببتها ما أن دلفت إليها أول مرة.

اقتربت مني تأخذ الورد وترد بعفوية مقصودة:

- لين قضت الليلة عند ليزا، فتاة لطيفة من المدرسة تحبها وأهلها طيبون، لم يكن هناك داعٍ لتكلف نفسك هكذا كل مرة.

ضممت الورد قليلاً إليها، وتوترها باد لي، كانت بثوب منزلي قطني، مكشوف الصدر والذراعين، بدت جميلة بوقوفها هكذا أمامي، كلوحة مرسومة، شعرها الأسود الناعم مسترسل على كتفيها، وعينيها الخضراوان جميلتان، رغم أنهما ضيفتان قليلاً، إلا أن تأثير هذا المزيج عليّ يزداد كل مرة.

وهذه المرة بدت مغادرتي أصعب علينا معاً. وضعت الزهور على الأريكة، وتقدمت مني خطوة، وجدنتني أقطع مثلها بدوري، حتى كدنا نتلامس، رفعت يدي بتردد، ومررت أصابعي على شعرها الناعم، أغمض عيني وشحنة كهربائية تحرق قلبي، مالت نحوي أكثر يلفني دفء جسدها، وذراعاها يتشابكان حول عنقي، تعطيني كل إشارات الاستسلام التي أحتاجها، أنا لا أخون عبير.. أنا أستحق شيئاً من السعادة بعد سنوات من الإخلاص والتبذل الإجباري.. لا بد أن إلهام مكافأة القدر لي. لكن ذهني لم يتوقف عن التفكير، عن استعادة الصور، ضغطت فمي على شعرها، أدفن وجهي فيه، وأنحدر لعنقها، وفيضان محموم في مشاعري.. ليلي!

أردتها بجنون اشتياقي لليلي.. لمُعذبتني الأبدية التي لا سبيل للوصول إليها.

كنت أمسك بخصرها بشدة، عندما سألتني فجأة بارتجاف:

- مَنْ؟!!

نظرتُ لها كمن يفيق من حلم، اضطربتُ ساكناً، لكنها كانت مُصرة:

- ليلي من؟!!

تراجعتُ، انسحبتُ بجسدي ومشاعري كمن يفيق من غفوة، غضبتُ أكثر، يستقرها صمتي، عدم قدرتي على الرد، ولا الكذب.

- إن كانت لك حبيبة لماذا تأتي إليّ؟ لماذا تستمرُّ في منحي أملاً كاذباً كل مرة بزياراتك

واهتمامك! أم تظنني امرأة رخيصة تضمّنها لنسائك!

- أنا آسف.. لكن كل ما تقولينه غير صحيح، من الأفضل أن أغادر الآن.

- تُغادر!

صاحت مجروحة صارخة خلفي، لم أفهم ماذا تريد!

- يا لك من نذل!

توقفت عند الباب أنظر لها بضيق، وشعور بالذنب، قبل أن أغادر المنزل، وأسمع صوت ارتطام شيء بالباب الذي أغلقته خلفي.

توجهت بسرعة لسيارتي وضجيج المحلات والناس يخنقني، قدتُ بسرعة بعيداً، لأي مكان هادئ لا يوجد فيه أحد.

تجمّع كل شيء وهو يتهاوى أمامي، كل الشهور الماضية وتعلقني بالهام، كل ما أنكرته وحاولت الهرب منه، لأجدني لم أفعل أكثر من أنني ارتكبتُ جرماً جديداً، وذنباً آخر يُضاف لآثامي!  
فلا مكافأة ولا خلاص مما أنا فيه.. لا خلاص!

\* \* \*

قفزت في البحيرة بقوة أهرب من التفكير، تضرب برودة المياه جسدي، ويبقى ذهني على حاله، أحاول التركيز في السباحة، فالبحيرة عميقة، خطيرة، لا يأتيها إلا من يسبح بمهارة ويريد تشتيت أفكاره مثلي.

أسبح طويلاً حتى أنهك، ثم أطفو على ظهري مغمض العينين، أفند كل الأسئلة والاحتمالات، لماذا لم أصبح أفضل احتمال لي مثلما فعل رياض؟ في أي نقطة سمحتُ بتداخل خط حياة لا أريده ليأسرني فيه؟ هل كل هذا مجرد تخاريف أخدع نفسي بها؟ أم إن غلطتي الحقيقية أنني عاجز عن الإيمان بها كما آمن رياض؟ أكل ما يحدث لي ذنب رياض؟

كان العيش مع عبيير يُكفر أكبر الذنوب، تحوّل حبها لي لمرض التملُّك، وبدت نموذجاً ناجحاً لقانون الجذب، حددت هدفها، برمجت عقلها الباطن، وجذبت كل هذا الألم لحياتها فقط لأبقى فيها. أحياناً أطرده هذه الفكرة، ويغلبني تعاطفي معها، لكن كثيراً ما تسيطر تلك الفكرة عليّ، إنها فعلت كل ذلك متعمدةً، دون أن تعي، منذ اتفاق طلاقنا وهي قررت أن تعيدني لحياتها بأي طريقة. فبعض الأشخاص يجلبون لأنفسهم أقصى أنواع المعاناة؛ ليحققوا رغبة أو هدفاً بداخلهم، ولا يدركون أنهم يدفعون الثمن غالياً من أرواحهم.

لكنني في هذه الحالة كنتُ أدفع الثمن معها، لم أكن أحياناً، بل أقضي فترة عقوبة أخلاقية لا يمكنني الإفلات منها. لم تعوضني الشركات والمنصب والأموال عن عمر لا أدري كيف مرّ، وماذا جنيتُ منه غير أيام وسنين دون حياة.. دون روح.. دون حب.

حتى لو خُيرتُ مرة أخرى لوقعت في نفس الاختيار.. نفس المصيدة، ووقفت حائراً بين سليم المثالي الذي ضحى بحبه كي ينقذ روحاً من الموت، وبين سليم الدنيء الذي أغراه المنصب والطموح.

لا، عليّ أن أتوقف عن التفكير بهذه الطريقة، وأفكر بطريقة كتب رياض، يجب أن أزرع داخلي مجدداً الإيمان بقدرتي على الوصول لسعادتي، لا الصراع من أجلها، نعم أنا انشغلت بالصراع وتغيير سيناريو حياتي الحالي بدلاً من اختيار الطريق الصحيح، طريق آخر لا أشعر فيه

بأنني مُجبرٌ على تمضية الأيام، يوم وراء الآخر دون أن أعيش أو أشعر بمتعة الحياة.

لكن لماذا لا يكون اختيار حياة أخرى بترك الحياة كلها فعلاً وليس مجازاً؟

أضاء السؤال ذهني بإغراء طوق النجاة، الماء البارد يغمر جسدي.. استسلامي لجرف التيار يزداد، فلأترك جسدي يغرق، يخثني بكل حرمانه ومعاناته، ستبقى روحي، أعلم بأنها ستبقى، ربما حينها ستتحرر وتسكن ليلى.. أريدها أن تسكن ليلى حتى لو تركت هذا العالم، ولو لم يتبقَّ لي خيار سوى هذا لأكون معها.

«لم يحبني أحد من قبل يا سليم»

أنا يا ليلى.. أنا أحببتك.. أحببتك أكثر من نفسي ومن حياتي.. لكن هزمني ذنبي، هزمننا، وأدفع ثمن ذلك كل يوم.. كل لحظة.

غمر الماء وجهي وتركت نفسي دون مقاومة أحاول الغرق، وتيار هادئ يسحبني للأعماق، لكن عندما كاد صدري ينفجر من نقص الهواء وجدتني أصارع لا إرادياً لأعود للسطح، شهقتُ وأنا أرفع رأسي فوق الماء أنظر حولي كمن يستفيق من حلم.. أنفاسي تتسارع بألم وقوة.. والصدمة تنتشر في وعيي وتصفعه، لا أصدق أنني لو هلة استسلمتُ لإغواء الموت.

\* \* \*

«أخفي الهوى ومدامعي تُبديه

وأميته وصبابتي تُحييه

ومُعذبي حلو الشمائل أهيف

قد جُمعت كل المحاسن فيه

فكأنه بالحسنِ صورة يوسف

وكأنني في الحزن مثل أبيه»

- سليم! أنادي عليك ولا تسمعني!

انتبهتُ لهتاف عبير، فنزعت السماعات من أذني بهدوء:

- ما الأمر؟

رمقتني بنظراتها القلقة، وقالت:

- لماذا لم تجهز حتى الآن؟ والدتك ووالداي ينتظروننا بالخارج، سنأخر.

- بقي نصف ساعة على الموعد، كنتُ سأنهض وحدي بعد عشر دقائق، لا تقلقي.

أعدتُ لأذني السماعات وأشعار ابن الفارض المغناة تتساب فيّ بوجع المداواة، حتى شردتُ عن

الكتاب الذي أقرأه، لكن عبير اقتربت تجلس بجانبني، فاضطرت لأن أركز معها.

- أنت بخير؟

- نعم، طبعاً.

- لكنك تبدو.. تبدو مختلفاً، منذ فترة طويلة، منذ أن أتينا لأمريكا لمتابعة علاجي، وأنت لم تعد تضحك.. بالكاد تأكل.. أشعر بأنه لم يعد يُسعدك أي شيء، ولا حتى في فترات تعافّي واستعادتي لصحتي.

كتمتُ انفعالي، وقلت محاولاً الهدوء:

- غير صحيح بالطبع، لكننا نتغير يا عبير، نتغير مع الزمن.  
قالت بمرارة:

- ورغم كل هذا التغيير؛ لم يتغير قلبك؟ لا تردّ.. أعرف أنه لم يتغير.

- ألن تملّي من هذا الكلام أبداً!

انفجرتُ رغباً عني وكلماتها تضغط جرحاً عميقاً متوهجاً، نعم لم يتغير قلبي ولا أدري كيف يتغير! بعد كل هذا العذاب وما زال كما هو فماذا بوسعي أن أفعل!

خرجتُ للشرفة مبتعداً عنها، يحاصرني أهلي خارج الغرفة، وهي بالداخل، اختفت! التفتُ بتحفظٍ أشعر أن أحدهم انضم إليّ، وعندما رأيت أُمّي علمت أنها فقرة التأييب واللوم لأجل عبير.

- ما بك يا حبيبي؟ كلنا فرحون وسنخرج نتعشى ونحتفل لنُنسي عبير العذاب الذي تراه في العلاج، فما الذي جعلك تنتشجر معها الآن؟

- لم تنتشجر ولم يحدث شيء! تعبت من كل هذا! مُراقبة طوال الوقت! كلنا مُسَخَّرون لشفاء عبير، للمحافظة على الحالة المعنوية لعبير، للضحك في وجه عبير كي نُشعرها بالتحسن! حسناً أنا لا أريد أن أضحك! نسيت كيف أضحك! ألا يمكن أن تفهموا ذلك!  
ردّت بأسى:

- أعرف يا حبيبي أن ما تتحمّله ليس سهلاً على أي أحد، لكنه النصيب، قدر ربنا.

هزرتُ رأسي رافضاً كلامها، وغمغمت:

- أنتم دمرتم حياتي.. كلكم دمرتم حياتي!

نظرتُ لوجهها فرأيت في عينيها ما تُكره طوال الوقت بلسانها، هي تعرف.. تعرف أنها أسيرة ردّ الجميل مثلي، تعرف أنني لم أشعر بالسعادة يوماً مع عبير منذ أن تزوجنا وقبل المرض، تعرف أنني استنزفت روعي وعمرِي وحياتي لأجل ردّ الجميل الذي أدمى أعناقنا، تعرف كل هذا ولا تُصرّح به.

قررتُ أخذ إجازة والعودة لمصر، فقد وصلتُ لأقصى درجات التمزّق النفسي، وكان يجب أن أرى ليلي، لم أعد أستطيع أن يمرّ المزيد من عمري دون أن أراها مهما كان الثمن، وبالرغم من اعتراض خالي لتدهور صحته، وكذلك حالة عبير غير المستقرة، لكنني كنتُ أعرف أنني إذا لم أخذ إجازة فوراً من هذه الحياة سأتوقف عن المقاومة وأموت.

\* \* \*

ليلي

أحيانًا لا أفهم كيف تزوجتُ هشام، كل شيء حدث بسرعة، صدمتي في سليم، انهيار الصامت، كياني الهش، هشام الذي بات يظهر لي فجأة في كل مكان، حتى أخوأي تعرف عليهما وبات يأتي للمنزل ليشاركهما لعب مباريات كرة القدم على البلاي ستيشن، دومًا ما يجد طريقه إليّ. كان بالغ الوسامة كنجوم السينما الذين يعشقهم، وسامة صبيانية، عسلّي الشعر والعينين، خفيف الظل، يجد قبولًا لدى الجميع، والده طيب ناجح ومعروف، فلم يتردد أبي في الموافقة على هذا الزواج، خاصةً وأن هشام يُعرف رسميًا كطبيب أيضًا، خدعني أم خدعتُ نفسي، لا أعرف، لكنني لم أعرف مدى هوسه بالتمثيل إلا بعد أن تزوجنا.

فكل ما أردته الهروب من كل شيء، جرح سليم الذي لا سبيل لمداواته، وجفاء أبي وسخرية أخويّ وبنات عمتي، فكان هشام، قرار صحيح أم خاطئ، لا أدري حتى بعد مرور سنوات عليه، لكن سلمى أمت، وتمنيت لو تتوقف كل فصول حياتي عندها، وأكون لها الأم التي تمنيتها؛ لأحميها من كل ما مرتت به.

ولم أكن أعرف أن دخوله حياتي هو إشارة السماح لعودة كل ما هربت منه طوال عمري.

«لوليتا حبيبتي، ألف مبارك، سمعت أن العرض كان تحفة! هشام هنا؟ مبروك يا إتش».

وقفتُ بغضب أرمق سوزي رفعت تخطو المنزل بكامل غنجها ودلالها، وسحابة ثقيلة من عطر نفاذ، في حين قال هشام الذي فتح لها الباب واستقبلها بقبلتين على الخد كالمعتاد:

- لا تخدعيني بهذه الحركات، لماذا لم تحضري أمس؟

رمقتُه بنظرة نارية، فمنحني ابتسامة جانبية مُخرجة، تقدمت سوزي للداخل تجلس واضعةً ساقًا فوق الأخرى، وثوبها القصير لا يترك شيئًا للخيال، لا يهم أكنّا بالنهار أم بالليل أم في جنازة! المهم أن تُظهر كل ما يمكنها من جسدها.

أشعلت سيجارة وهي تقول:

- اذرنني يا إتش يا حبيبي، كان لديّ سهرة مهمة جدًا مع فريق عمل أغنيتي الجديدة، أين لولو

حبيبتي، مازالت أمها تصرُّ ألا تسلّم عليّ.

تقدمت نحوها أخذ السيجارة وأطفئها بحدة:

- قلت لك مليون مرة ممنوع التدخين في هذا المنزل.

رمقتني بنظرة باردة مثقلة بالرموش الصناعية، وقالت:

- أين البنّت؟ أريد أن أسلّم عليها، فلن أبقى طويلًا.

تمنمتُ ساخرة:

- الحمد لله.

وذهبتُ لسلمى في حين كان هشام يسألها باهتمام:

- مَنْ منتجك الجديد يا سوزي؟

دخلتُ غرفة سلمى لا أريد سماع بقية حديثهما، لا يضايقني في هشام أكثر من هذا الأمر! ترحيبه البالغ بسوزي في حياتنا، منذ أن أتت فرحنا وانتشرت صور الفرح في كل مكان، واعتبرها علامة نجاح وقبول، وطّد علاقته بها بسرعة كعادته في اقتحام الجميع، بابتسامته المرحّة وكلامه المعسول، أحبّته سوزي وفرحت بعودتها لحياتي.. أو هذا ما تدّعيه. لا فائدة، مهما حدّثته في الأمر لن يقتنع، لم أكن أتخيل في البداية مدى إصراره على العمل في الفن، ظننتها هواية جانبية غير جادة، فكيف لعاقل أن يترك مستقبله كطبيب أطفال ويسير وراء وهم التمثيل! لولا مساعدة والده الدائمة لما استمرّ هذا الزواج أو استمرّ هو في التمثيل.

خرجت بصغيرتي إليها في النهاية، فرغم رفضي الكامل لها لا أستطيع منعها من رؤية حفيدتها، ربما كان هذا يتطلب قلبًا أقسى.. أو أكثر حقًا.

بعد الترحيب والقبولات ودسّ بعض المال في يدها، قالت لهشام بجديّة:

- سأكلّمه وأخبرك بالنتيجة.

رمقته باستغراب، في حين نهضت سوزي متابعَةً:

- مضطرة أن أمشي الآن، عندي مواعيد كثيرة جدًّا.. باي!

- لا! لا يمكن أن تقوّتي فطور لولا المميز!

أطلقت ضحكة غنجة عالية، وهزت رأسها ترمقني ساخرة، قبل أن تنصرف.

ما أن أغلقت الباب وراءها حتى هتقتُ بهشام:

- تُكلم مَنْ؟ وتخبرك بماذا؟!!

تهرّب من النظر لي ثم قال:

- المنتج.. منتجها الجديد، أنتج أفلامًا من قبل، ولديّ سيناريو رائع أعرضه عليه، وأنا البطل طبيعيًا.

- مُنتج سوزي! ألم تجد غير سوزي لتتوسط لك؟ ألا تعمل حساب لمشاعري لهذا الحد! ألا

يهمك ما أرفضه على الإطلاق! أليس لديك ذرة مبادئ واحترام للذات!

- أنت التي لا تفهمين، تُصرين على رفضها وهي لا تريد لنا سوى كل خير.

- خير أم شر لا يهمني! يهمني ألا يكون زوجي تحت رحمتها! ابحت أنت عن منتج آخر! إن

كانت هي وجدت واحدًا فلم لا تجد أنت!

ردّ بسخرية:

- لو كنت أملك إمكانيات سوزي لوجدت فورًا بالطبع!

تجمدتُ بنظرة غاضبة، قبل أن أدخل غرفتي، وأغلق الباب عليّ.

- كنت أمزح يا ليلي! افتحي لا تكبري الموضوع! يا لعنادك!

كانت من اللحظات التي أشعر فيها بأنني أريد أن أغير كل حياتي، أن أعود للوراء فلا أختار هشام، لا أختار أحدًا، فقط أتبخر ولا أكون أبدًا.

أفكر أنني اخترت هذه الحياة، هذا الاحتمال والسيناريو كما قال سليم، اخترت حياة أريد فيها أن يحبني هشام وأحبه، لأنسى أي حب قبله وأكون سعيدة. فلربما إن تظاهرت بالحب والسعادة لفترة طويلة، سيأتيني الحب والسعادة فعلاً كما قال لي، ربما. وها قد مرّت سنوات ويبقى شعور لا يفارقني، أنني أعيش على حافة حياة أريدها.. ولا أدركها.

أنفض كل صباح مفرش زواجي الذي شغلته جدتي الغالية بيديها، مُزين بوردات من اللآلئ والفصوص اللامعة، فوق طبقات ناعمة من الحرير الفضي اللون والأورجانزا، أفرده على سريري وألامسه بانبيهار لا يزول، ألمس الحب والجهد المطل منه، ولمعان ورداته تحت أشعة الشمس.

«تملي في قلبي يا حبيبي وأنا غايب بعيد عنك

تملي ولا أنت داري بي وأنا باشكي إليك منك

أنا باشكي إليك منك يا حبيبي»

ينساب صوت محمد فوزي بخفوت من راديو حديث بجانبني، خفوت من يخجل من ذكرى قديمة، فلا يصدح كي لا ينكأ الجرح.

فقط يُذكرني بصباحات قديمة لها لون وطعم ورائحة عالقة في قلبي، طعم سعادة حقيقية تجعل كل ادّعاءات السعادة أمامها ماسخة.. مزيفة، صباحات تحوي عُمرًا جميلًا من الوهم، وبرغم كل الألم الذي تلاه، تبقى هي أجمل ما عشته.

في صباح هادئ توفيت جدتي، غمرنا حزن عميق، واقتطع رحيلها جزءًا من قلبي، لكنني لم أقدر إلا أن أحب شكل رحيلها، على فراشها الأبيض بمفارشه الرائعة التي شغلّتها كلها بيديها، في غرفتها العابقة بالقرنفل والريحان، وكل زاوية فيها مغطاة بمشغولاتها المتنوعة، مفارش وستائر ومحارم ولوحات كانافا، تشهد عمرًا من العطاء والحب. رأيت وجهها بعد رحيلها، بدت نائمة، هانئة، راضية، كما كانت دومًا، شعرت بأنني أريد لنهايتي أن تأتي بهذه الطريقة، بعد حياة عامرة أحقق فيها كل ما أريد، وأترك أثري على كل من أحب، أرحل بهذا الجلال، وأحصل على موت جميل.

لم أقطع عادتي بالمرور على عمتي قبل ذهابي لأبي كل أسبوع، أخذ معي لها أكلة تحبها صنعتها بيدي، ونثرثر طويلًا، أحب صحبتها ووجودها، بوجهها الطيب وشعرها الأبيض، والسبحة الطويلة التي لا تفارق يدها، بدت مع الزمن نسخة أخرى من جدتي، تسألني عن أخباري وتدعو لي كأبي أمّ مُحبة، تسألني متى سأتحجب، فأبتسم قليلاً وأتمتم: «قريبًا إن شاء الله»، أضحك مع سما

وريماس اللتين أصبحتا فتاتين جميلتين، يريحني جو الأسرة الدافئ، وترتيبات زواج سما، وخطوبة ريماس، أشاركهما وأساعدهما في حماس، حتى أخبرتني عمتي بسعادة ذات مرة:

- أتعرفين أن خطيب ريماس وافق أن يعيشا هنا معي بعد الزواج؟

- فعلاً؟ جميل.. جميل جداً.

- سيغرون كل شيء في المنزل تقريباً، لكنني وافقت، لا يهم، المهم أنها ستبقى معي.

- طبعاً، ألف مبروك.

قلتها ولا أعرف لماذا يصيبني هذا بالحزن، الأمر منطقي، زوج عمتي تُوفي العام الماضي، وعمتي شديدة التعلق بآخر العنقود ريماس، من الطبيعي أن تصرّ على أن تسكن معها بعد الزواج. «سيغرون كل شيء».

ربما هذا السبب، لن يعود منزل طفولتي، لن يمكنني المجيء دون موعد كما اعتدتُ، سيتغير كل شيء، سيسلبون مني جو الأسرة الذي أحببته، حتى لو لم أكن جزءاً أساسياً منه.

\* \* \*

احتفلنا بعيد ميلاد سلمى التاسع في منزل أبي، كان الوضع قد تغيرَ بموت زوجته العام الماضي، أزمة قلبية مفاجئة ظننا أنها ستنتهي على خير كما يحدث للملايين، لكن تقاوم المرض عليها، كأن شريط حياتها توقّف بغتة ولا بد من النهاية بأي شكل.

بات أبي وحده بعد أن تزوّج أخوأي، ولم يعد في المنزل أحد سواي أنا وسلمى، يتقبّل أبي وجودنا واهتمامي به دون كلام أو مشاعر خاصة يُظهرها لي، ومع ذلك استمررتُ في القدوم لمنزله، يومين كل أسبوع، أعتني بطلباته التي لا يطلبها مني، ويأمر مديرة المنزل بها، وأطهو له وجبات الأسبوع كله بيدي، وإحساسي يؤكد لي أنه يكون أكثر راحةً عندما أعتني أنا به.

بمساعده وجدّت عملاً في المبيعات في شركة أحد أصدقائه، لم أخبره بأنني بحاجة لدخل شهري يخصني، أخبرته فقط بأنني بحاجة لملء فراغ وقتي.

كما أنني لم أعد أحب البقاء طويلاً مع هشام، لم يعد يريد مني سوى لقاءات الظلام، بات هذا كل ما بيننا، اختقت لغة الحوار بعد إصراره على المضيّ في طريقه وفشله كل مرة، فلم يعد يطلب دعماً أو رأياً، فقط يفعل ما يريد، حتى ضاقت الحياة بنا، بمصاريف سلمى ومدرستها الباهظة التي أدخلها فيها حماي، ونمط حياة باذخ يصرُّ عليه هشام، فيصرف خلال أسبوع كل المال الذي يأخذه من والده شهرياً، ويؤلف حججاً وأعداراً ليأخذ المزيد من أمه بطريقة أو أخرى بقية الشهر، عجزت عن إقناعه بأن والديه لن يدوماً لنا للأبد؛ حتى تنهي سلمى دراستها، وحتى يصل هو لمكانه في التمثيل تجعله يدرُّ دخلاً منتظماً للبيت، لكنه لا يصدق ذلك، يصدق أن الفرصة الرائعة في انتظاره حتى بعد بلوغه الثامنة والثلاثين دون ظهور مؤثر على الشاشات.

أما أنا فيُذكرني عيد ميلاد سلمى كل سنة، بأنني أنهيت سنة أخرى في عمري، وبعدها بأيام يحل

عيد ميلادي، لكن هذه المرة سأتم ثلاثة وثلاثين عامًا.  
روحي غافلتني ولم تكبر معي، لم أكن أعلم أن العمر يجري، وأنا لا نجري معه بنفس السرعة، أنا نتمهل، نتشبت بلحظاتها الجميلة، وننسى سباق السنين.  
عشر سنوات على زواجي، على اختياري حياة لا أريدها، بكامل إرادتي، لكن مضيت فيها بكل عزم، حتى إنني أتساءل إن كنت قد اخترتها حقًا، إن كان سليم خدعني في هذا أيضًا ونحن لا نختار أي شيء، ونقبل فقط ما يوضع أمامنا لا نملك البديل.  
أجر غيمتي خلفي، اعتدت لزوجتها وثقلها، أحمل سوزي معي كل مكان بعدما أعادها هشام لحياتي، وألقى في وجهي العار الذي هربت منه.  
أطفأت مع سلمى شموعها، وهاجس يراودني بأنني أرثي سنواتي الماضية، يمضي بي العمر وكأنني نصفان، نصف يراقب تساقط أحلامه في خريف أتى قبل أوانه، والنصف الآخر يرثيه.  
انصرفت أسرة هشام باكراً، وأوى أبي للفراش، قضى هشام الليلة معنا كما اتفقنا، وغادر ظهر اليوم التالي.

تناولت قرصين من مضاد الاكتئاب الذي أصبح وجوده في حياتي ضرورياً مع المنوم، استشارة سريعة على جروب نسائي على فيسبوك، بحساب يحمل اسماً مستعاراً وليس اسمي أتابع به الضروري من الأخبار، ولا يمكن لأحد ربطه بسوزي كما حدث قديماً، سألت مرة عن منوم وعلاج للأرق، فتبرعت الكثيرات بسرد تجاربهن، وتشجعت للتجربة خاصة مضاد الاكتئاب الذي ساعدني على كبح مشاجرات عديدة مع هشام، وارتداء قناع التماسك في كل يوم من حياتي، لا سيما بعد وفاة جدتي.

خرجت للشرفة أقف في الهواء المنعش، وثقل يجثم فوق صدري، هناك خطأ ما في كل هذا، خطأ اخترت ألا أراه، ألا أحس بثقله، أتجنّب دائرة الضوء التي تحولني لذرات غبار، أهو اختيار آخر خاطئ للهروب من الحقيقة؟ لعدم الاعتراف بتهوري في كل مرة هرعت فيها للبحث عن الحب، عن بداية جديدة، مُرحبة بعمامي المريح لأتجنب مواجهة نفسي قبل أي أحد آخر؟  
اكتشفت أنني صرت أتجنّب حتى مجرد النظر لنفسي في المرأة، أمرٌ سريعاً أمامها، كأنني أخشى إن أمعنت النظر فيها لن أراني.. لن أجدني.

هل أهرب من لحظة التنوير في حياتي كما قال سليم؟ أخشى نهاية الحكاية؟ نظر لعيني يومها كعادته حينما يُلقى كلماته لتستقر في قلبي، وقال:

«المشكلة عندما تتأخر لحظة التنوير، اللحظة التي يقف فيها الشخص منا مندهشاً ويقول: كيف فعلتُ بنفسني هذا! كيف كنتُ معممياً عن هذا المصير؟ حينها فقط تبدأ نهاية الحكاية، نهاية الألم والمعاناة، ويرى الحياة من جديد، أما وهذه اللحظة لم تأت، حتى لو رآها كل من حوله وهو مازال منقاداً في ظلامه، لن تنتهي الحكاية.. وسيظل يدور ويشقى في دائرته المفرغة».

لفت انتباهي صوت حركة غير معتادة في شقة سليم المهجورة منذ سنوات، كانت شرفتا الشقتين متجاورتان، ولزمني بضع ثوانٍ حتى استعادت عيناى الرؤية بوضوح وتلاشت النقط الفضية نتيجة تحديقي في الشمس، ولم أصدق عيني عندما رأيته، سليم! هتف قلبي بلوعة خرساء دون أن أتقوه بحرف، ثوانٍ وانتبه لوجودي فابتسم، تلك الابتسامة التي أطارت صوابي وأنا صغيرة ساذجة. بقيت أصدق به، بوجهه الذي فاجأني أنه تغير، وكل سنة مرت تركت أثرها عليه، الشعر الأبيض عند فوديه، الخطوط فوق جبينه، رغم أنه لا يكبرني بأكثر من سبع سنوات، لكنه بدا أكبر عمراً بكثير، حتى جسده الرياضي الذي أذكر تفاصيله جيداً بات أكثر نحولاً، لم أدرك أنني أذكر تفاصيل جسده إلا حينما كنتُ أغلق نور غرفتي وأغرق في الشوق والظلام.

ومع ذلك بقيت وسامته وجاذبيته الواثقة، بقي الشاب الرصين الذي أحببته، والذي تخطى عني.

- يبدو أن أول صباح لي هنا أجمل مما توقعتُ.

قالها بنبرته الدافئة التي سحرني قديماً بها، وتنبهت بتوتر أنني بثوب نومي المعلق على كتفي بحمالتين، واثقة أن لا أحد في الجوار يمكن أن يراني.

لكن نظراته لي لم تكن مقتحمة متفحصة، لم يزعجني يوماً بنظرة رغبة واضحة أو شهوة، كانت سترعيني بالتأكيد منذ عشر سنوات، ولا أظن أن هناك مجالاً لها الآن.

- متى عدت؟

سألت مباشرةً، فردّ مباشرةً أيضاً:

- أمس، إجازة شهر وسأعود لأمريكا.

غلامي، مجرد شهر!

- وعبير؟ معك؟

ذوت ابتسامته ينظر بعيداً:

- لا، تنتظرنى هناك.

على الأقل صريحاً معي هذه المرة!

مررت يدي في شعري الطليق مشدودة الأعصاب، فتابعني بنظراته، أكاد أرى فيها ما استبعدته منذ قليل، اختلّت ضربات قلبي باضطراب لم ينتبني منذ سنوات بعيدة، قبل أن أقول ببسمة زائفة:  
- عموماً حمداً لله على السلامة، أستاذك سأعود للداخل، استيقظنا أنا وهشام متأخرين اليوم وأحتاج لأخذ حمام، عن إذنك.

ودخلت غرفتي أوصد باب الشرفة بزهو الانتقام، بعد أن رأيت وجهه شاحباً.

لم أغانر المنزل بقية اليوم منشغلاً بطلبات سلمى وأبي، وإجراء أمسيات غرفة البيانو لا يفارقني، لكنها لم تعد مكاننا الخاص منذ وقت طويل، توافد عليها عشرات غيرنا، يتلاعبون بالمفاتيح العاجية، ويطلقون نغمات مرحة حيناً، ونشاز أحياناً وسط ضحكهم ومزاحهم.

لكن حينما أتى الصباح التالي ولم أنم إلا ساعات متقطعة، ارتديت ملابس، وتركتُ على طاولة الطعام طبقاً من المعجنات الشهية لسلمى يسهل تسخينها إن استيقظت في غيابي، وغادرتُ المنزل في السابعة، استقبلني الهواء البكر ينعش حواسي، ويوقظ لذة قديمة سرية، يعيدني في لحظة عشر سنوات للخلف، لفتاة تسكن ركناً ما في روعي، أحاول ألا أراها. توجهت لحمام السباحة لا أدري إن كان هناك أم لا، حتى وصلني صوت الموسيقى، مقطوعة كلاسيكية ناعمة، محفورة في ذهني. ورأيتَه تمامًا كما كان منذ سنوات طويلة، يسبح نائماً على ظهره، مغمض العينين، وحركات ذراعيه تتحرك بتناغم وثقة، لم يبدُ نحيلًا جدًّا كما ظننتُ، واحتفظ بمرونة عضلات جسده، في تلك اللحظة بدا وكأنه عاد الشاب القديم الخالي من الهموم.

«يمكنني تأملك هكذا طوال العمر».

«وأنتِ كل العمر يا ليلي».

أبعدت ذكرى موجعة عن ذهني، وتحركت لأبتعد كلياً أيضاً، فسمعت صوت حركة واضحة في الماء، رأني وأسرع بالخروج، فتجاهلتُ النظر إليه، ومضيت في طريقي، لحق بي بعد دقائق قليلة وهو يرتدي قميصه على عجل.

- أمازلت تحبين الاستيقاظ باكراً؟

رمقته ببرود دون أن أتوقف وقلت:

- ليس دائماً.

- السنوات تُغيّر الكثير من الأشياء.

توقفت هذه المرة لأقول بلمحة شماتة:

- أكيد، يبدو أثرها عليك واضحاً.

ابتسم وامتلات عيناه شجناً وهو يقول:

- أعلم، أما أنتِ.. لم أكن أظن أن هذا ممكناً، لكنك ازددت جمالاً.

مستتني كلماته، فتصاعد كرهه في قلبي..

- أتعلمين؟ أشعر أن من يحب الصباح مثلنا يبحث عن البدايات الجديدة، أما من يتوق للخواتيم

فيعشق الليل.

وأين خاتمنا يا سليم؟ تركتني بقلب مفتوح ورحلت!

لا! لن تدخلني بعذب كلامك في عالمك المزيف من جديد!

منحته ابتسامة الغرباء التي طالما كرهتها وقلت:

- عن إذنك ليس لدي وقت لأضيعه في ثرثرة لا معنى لها.

قال بسرعة:

- عيد ميلادك بعد عشرة أيام، سعيد لأنني حضرت في هذا الوقت.

قلتُ بحة:

- هذا شيء لا يهمني!

- أعرف أن عيد ميلاد سلمى كان أول أمس، معك في نفس الشهر، وأحضرت لها هدية.

- إياك! ليس لك شأن بها أبداً!

وابتعدتُ بحزم عنه.

- ألن تسامحينني أبداً يا ليلي؟

توقفتُ، التفتُ إليه، الألم يملأ صوته وعينيهِ، فهمست من كل قلبي:

- لا، لن أسامحك.

كيف أسامحه والأذى مازال واقعاً بي؟ التسامح يأتي مع الشفاء، مع التجاوز، وأنا لم أشفَ ولم

أتجاوز، لم أتجاوز ما فعله بي، دون حتى أن أعرف أن أعقد محطات حياتي معه، لم تأتِ بعدُ.

رتبتُ خصلات شعر سلمى برفق بعد أن ارتدت ثوبها، وسألتني:

- أيجب أن نعود لمنزلنا الآن؟

- ألا تريدان العودة يا لولو؟ بابي يريد أن يراك.

- أعرف، أحب بابي، لكن أريد أن أبقى هنا.

- حسناً.. سأرى.

تمتمتُ بقلق أنتبه لأول مرة أن البنت كبرت، وباتت تفهم الكثير من الأمور.

سلمى حبيبتني.. ربما هي في النهاية مثلي، تشبهني، وليتها لا تكون، لكنها تحب هذا المنزل،

رغم كل جهودي لجعل منزلنا جميلاً، وغرفتها مبهجة، رغم كل الشجارات التي أكبحها مع هشام؛

كي لا تنتشأ في جو أسري مفكك، يتهمني هشام دوماً بأنني أبالغ في حمايتها، ولا أتركها تعتمد على

نفسها أبداً، لكنني أردتُ أن أفعل كل ما أستطيعه لتحظى بجو أسري دافئ مستقر، طالما تقفُ له،

فعلت كل شيء لأغمرها بحبي، لتصبح شخصية قوية، وليست مثلي، لا تنقلها غيمة، ولا يطعنها

ألم التخلي، أفيعد كل هذا لم أنجح؟ كل ما تغير أنها أصبحت تدفع معي ضريبة كوني ابنة سوزي

رفعت؟!!

سوزي! المجنونة بعد أن اقتربت من الستين تقدّم أغنية منحلة بهذا الشكل، على أمل أن تعود

للأضواء التي انحسرت عنها، مع ظهور فتيات أصغر سنّاً وأكثر إغراءً!

حققت الأغنية نسب مشاهدات فلكية على «يوتيوب»، لكنها أصبحت محل هجوم ونقد من

الجميع، بعد أن تجاوزت إحياءاتها الفجة كل حد!

رأيتُ وجه أبي، ولم أكن في وضع نفسي يسمح لي بتحمّل نفوره هذه الأيام، وأمام ابنتي.

حينها تأكدتُ أننا لا نورث أطفالنا ملامحنا وطباعنا فحسب، بل نورثهم كذلك عُقدنا وخذلاننا من

الحياة.

- هيا يا سلمى.

أمسكتُ بيدها متتهدةً نغادر غرفتنا، لكن لم نكد نصل للباب حتى سمعت صراخ مدبرة المنزل، فهرعت إليها بذعر لأكتشف أن أبي انزلق في الحمام فاقدًا الوعي لا يتحرك. في المستشفى أخبروني أنه أصيب بهبوط حاد ففقد الوعي، والتواء في القدم نتيجة السقوط، اتصلت بأخويّ أخبرهما بما حدث، وانتظرت مجيئهما، لم يكن معي سوى سليم الذي لحق بنا دون دعوة مع سيارة الإسعاف، ناسيةً تمامًا أن أبلغ هشام. تركت سلمى مرغمة مع سليم لأبقى بجوار أبي، كان نائمًا بسبب المسكنات، بدا ذابلًا وضعيفًا، وشعرت بالخوف فجأة أن يرحل ويتركني.

ربما لا نتحدث كثيرًا، لسنا مقربين بالشكل الذي أتمناه، لكنه سندي وأماني في الحياة، أيدري كم أحبه وكم حاولت لأحافظ على صورتي المثالية في عينيه؟ أيشعر بتحملي؛ لكوني ضيفة في منزله طوال ذلك العمر، ومعاملة أخويّ الجافة لي؟ أيشعر؟ أيرى أنني أستحق حبه بعد كل هذا أم لا؟ دفنتُ وجهي بين يدي وانتحيت بصمت، حتى فتح الباب فجأة ودخل أخواي مع زوجتيهما. ماذا حدث؟ ماذا فعلت به؟

مسحت وجهي وحدثت وليد بغضب مكررةً:

- فعلتُ به؟! كنت أعتني به وليس مثلك لا أسأل عليه!

تدخل مصطفى بتوتر:

- لا عليك لا تهتمي لكلامه، المهم ما حالته؟

أخبرته بما قاله الطبيب، فقالت زوجة وليد:

- لا بد أن نبقي كلنا معه حين يعود للمنزل، لن نتركه مرة أخرى أبدًا، فمن يدري المرة القادمة ماذا سيحدث!

وأضاف وليد ساخرًا:

- هذا بعد إذن ليلي هانم طبعًا التي احتلت البيت هي وزوجها! الله يرحمك يا أمي! أمي الهانم المحترمة!

رمقته هو وزوجته بقرف ودمي يغلي غضبًا، أفهم ما يشير إليه.

قالت زوجة مصطفى:

- هذا الكلام ليس وقته الآن، المهم أن نطمئن على عمي.

أخذت حقيبة يدي بعصبية، وقلت:

- أتريدون الاعتناء به؟ عظيم جدًا سأذهب أنا لأرتاح واختاروا منكم مرافقًا يبقى معه الليلة! سلام!

وخرجت تاركةً المفاجأة على وجوههم، أحارب شعوري بالخزي من كلمات وليد، وأجذب ابنتي

من سليم، وأمشي دون كلام.

- سأوصلك، ليس معك سيارة.

كنت قد قَدِمْتُ في عربة الإسعاف بالفعل، ترددتُ قبل أن أركب معه وأجلس سلمي في المقعد الخلفي، وأصعد بجواره، منهكةً فارغة الكلمات.

عندما وصلنا للمنزل عبست بتوتر أقول:

- لم أكن أنوي العودة هنا الليلة، أنا فقط لم أركز، سأعود للمنزل.

أمسك يدي بسرعة قبل أن أفتح الباب وقال:

- وما المانع أن تبيني هنا؟ لن يضايقك أحد، كل ما قالوه كلام فارغ لن يترك أحدهم حياته ليعتني بوالدكم سواك.

نظرت بحدة ليده ومشاعري ترتجّ فجأة، لا أريد نهره بوضوح كي لا تلاحظ سلمي شيئاً، ولا أتحمّل لمستته، فترددت قبل أن يترك يدي ويزفر مشيحاً بوجهه.

- لا أريد مشاكل مع أحد، ثم إن هشام يتوقع عودتنا الليلة.

رمانى بنظرة منفعلة، قبل أن يقول:

- افعلي ما تشائين!

ترجّلت أنا وسلمي من سيارته، وتوجهنا لسيارتي والدموع تملأ عيني.

\* \* \*

تجمع أياماً منفرطة كحبات لؤلؤ منثور.. ولا تدري كيف تبعثّر هذا العمر الجميل!  
تذكّر هشام يوم ميلادي وأهداني احتفالاً مع سوزي وفرقته المسرحية، لم أصدق أن تملك المرأة وتأتي منزلي بعدما فعلته! لكنها دخلت في حماية هشام كالمعتاد، مرحباً بدور حمامة السلام بيننا.  
حذبتها ببرود جليّ ولم أردّ تحيتها، مرغمةً على قبول وجودها مع بقية الفرقة. دخلوا كلهم منزلي يحتفلون بي، بكثير من الحلوى والبالونات وقصاصات الزينة التي تلتصق بالأرض، سهروا وضحكوا وشربوا مياهاً غازيةً فقط لأجل خاطري، يسخرون من تزمتي، بدا المنزل ليلتها أشبه بعرض مسرحي، هشام يمثل دوره المرح الضاحك وهو ينتقل بين الجميع ويستقر عند سوزي دائماً، وسوزي نفسها تمثل دور المرأة اللطيفة والفنانة المهمة، ولا نتوقف عن توزيع نظراتها المغرية، ولمساتها الناعمة حين يُضحكها أحدهم أو يقول شيئاً لطيفاً، فتمسّ كفّ هذا أو ذراع ذاك بدفء وامتنان، فإذا بالجميع يطوفون حولها في النهاية مفتونين بها.

ابتسمتُ ساخرة من نفسي، لا أدري لِمَ لَمْ أرتّب ذكاءها!؟

لا شك أن سوزي تحنّ دور البطولة في حياة كل من تعرفه ومن لا تعرفه أيضاً! أما أنا فمزلتُ على هامش حياتي نفسها، مزلتُ تلك العاقلة جداً.. الهادئة دوماً.. المتماسكة أبداً، تلك التي يقول

عنها الجميع «عاقلة»!

ولا أحد يذكر أنه لا يلقى في الجحيم إلا.. عاقلاً.  
نقلت نظري بين الموجودين، فبدت لي الحياة كمسرح متواضع، وكُننا هواة، نقنع أنفسنا بأننا نجوم، محور الكون، نحتل البطولة في حياة كل من نحبه، ورغم زيف هذا الادّعاء، نتجاهل الحقائق الساطعة، وبتوازي خلف جمهور صغير يهتف لنا بحماس: «رائع! عظيم!»  
فلكل منا جمهوره الخاص الذي يهتف له، نتشبث به ونختار تصديقه بدلاً من مواجهة الحقيقة، حتى لو بارك خطواتنا إلى الهلاك.

تركتهم وذهبت للمطبخ أعد كوب نسكافيه، فوجدت زميلة هشام بطلة العرض الأخير تلحق بي، كانت سمراء لطيفة، ثوبها قصير مفتوح الصدر بشكل مبتذل، لكنني اعتدت هذه الأمور، وقالت لي مبتسمةً:

- أيمكن أن أشرب قهوة معك؟

بادلتها الابتسام مجاملة:

- بالتأكيد سأعدّها لك.

شكرتني ثم أحسست بأنها تراقبني أو تتأملني أكثر مما يجب، وعندما أنظر إليها تتسع ابتسامتها متظاهرةً بالبراءة، ظهر هشام على باب المطبخ ينقل نظره بيننا بسرعة قبل أن يهتف بمرح:

- ما هذا، اجتماع فتيات!

بدا لي متوتراً، ونظرات «شهيره» مريبة، قلتُ برسمية قبل أن تردّ هي:

- أبدأ، كنت فقط أعدّ القهوة لزميلتك.

وخرجتُ من المطبخ وهو يلحق بي، يضع ذراعه حولي كتفي بمحبة قائلاً:

- تعالي اجلسي معنا قليلاً، لم أكد أراك في حفلتك.

ابتسمتُ له بسمة مصطنعة:

- ابقى أنت مع أصحابك، سأجلس أنا مع لولو كي لا تمل.

هز رأسه مستسلماً وجلستُ مع سلمى التي تراقب ما يدور مثلي دون أن تبالي كثيراً، حاولت إبعاد الشك الذي راودني، لا يمكن أن يكون هناك شيء بين هشام وتلك المرأة، وإلا ما جرؤ على أن يُحضرها إلى بيتنا، أم تراني ساذجةً كالمعتاد؟!

لكننا انفصلنا نفسياً منذ وقت طويل، وهشام رجل وسيم ومرح ولا بد أن الكثيرات وقعن في جاذبيته، فهل معقول أن يبقى مخلصاً لي رغم الهيكل الهش لزواجنا، وحياتنا التي يهرب فيها كل منا من الآخر؛ تجنباً للوم أو المواجهة؟

انقبض صدري ونظرت للأرض أشتت أفكارى بتصميم، أفكر كيف سأنظفها من القصاصات المذهبة والفضية، التي ستتحشر في المكنسة الكهربائية، وسأعاني الأمرين حتى أعيد البيت كما كان، عندما دسّت سلمى نفسها في حضني دون مقدمات تقول لي:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا مامي.  
لففت ذراعي حولها أحضنها بحنان وابتسامة تشقّ طريقها لوجهي أخيراً هذا اليوم.  
- وأنتِ طيبة يا حبيبتي.. وأنتِ سعيدة وجميلة وطيبة يا روح مامي.  
ولم تعد شكوكي أو تنظيف الأرضية أكثر ما يهمني تلك الليلة.

\* \* \*

حاصررتي الذكريات ما أن دخلت شقتي، أسخر من نفسي ومن كل عاشق ردد أشعار قيس، دون أن يتصور أنه سيصبح في النهاية مجرد مجنون آخر، يشناق لليلي وديار ليلي! ورأيتها، كانت رؤيتها عذابًا حلواً صافياً، تمنيت لو يتوقف عمري عند هذه اللحظة في هذا الصباح وأنا أراها تقف في شرفتها قريباً مني، آية في الجمال والصفاء، لو ينتهي عمري تَوًّا ولا أرى غيرها.

هنا معها، أراها في شرفتها وفي حمام السباحة وفي المصعد والحدائق، هنا عالمي، مداري الذي أنتمي إليه، هنا أستطيع التنفس بعيداً عن روائح الأدوية والغرف المعقمة. تمنيتُ، لا أنكر أنني تمنيتُ أنني عندما أراها بعد كل هذه السنوات سأكتشف أنني سرتُ وراء وهم، وأن حبها انمحي داخلي دون أن أعني؛ لأرتاح من عذاب لاحقني بعنادٍ يمطرني بالشوق والحرمان!

لكن ما اكتشفته أن لحبها مداراً زمنياً خاصاً به، يتعدى ويتجاوز مفاهيم الزمن العادي الذي نحر قلوبنا، رأيتُ في عينيها زمني، ورأيتُ، رغم إنكارها، أنها عالقة معي في مدار حبنا السرمدي. ومع ذلك كانت مصممة على عدم الغفران، على كرهها، لا تعرف كم أحتاج لها، كم أتوق لربطة من يدها تواسي روحاً تمزقت لأجلها.

لكن بدت كل الظروف ضدي، انتظرت يوماً بجوار الباب لألتقط فرصة خروجها:  
- أريد التحدث معك دقيقة واحدة فقط، من فضلك.

توقفتُ بتردد لا تريد النظر مباشرة لي، قدمتُ لها عُلبة قطيفة زرقاء وفتحتها لترى أسورتين واحدة أصغر من الأخرى، وطرف كل منها ينتهي بجناح ملاك، ويحتضن الجناحين حرفاً «S» و«L».

رفعت نظراتها لعيني بحدة ورفض، فقلتُ بسرعة:

- إنها لك ولسلمى.. أول حرف من اسمها واسمك، طلبتُ صنعهما خصيصاً لأجلكما قبل أن أنزل الإجازة؛ لتكون هدية سلمى في عيد ميلادها التاسع. وتخيلت ألف مرة لحظة منحها لك.. وتمنيت ألف مرة لو أجرؤ أن يكون أول حرف من اسمي أنا.

- كيف ظننت أنني يمكن أن أقبل أي هدية منك!

- لأنها.. سنُسعد سلمى..

- قلت لك مليون مرة ليس لك أي شأن بسلمى.

- توقفي عن العناد ولو لحظة يا ليلي!

تراجعتُ بعدائية:

- لن آخذ هديتك يا سليم، من أخبرك أنني أريد أن أتذكرك؟  
طعننتي.. لكنني أمسكتُ يدها فجأةً بحركة غير متوقعة، أَدَسَّ العلبة فيها، وصوتي يأتي أجش من قلبي:

- خذها إذن وانسيني كما تشائين!

وتوجهت لشقتي غير قادر على مواجهة الكره في عينيها.

بدأ العذاب ينهشني من جديد وأنا أجهز نفسي للعودة إلى المنفى، رغباً عني، كنتُ أنوي أن أبقى أكثر وأن أفكر معها في أي احتمال يجمعنا، لكن اتصالات خالي لم تتوقف، ودخول عبير في مرحلة جديدة من المرض جعلته يلحُّ في حضوري، وبتُّ مضطراً مرة أخرى للرحيل.  
كنتُ أدرك أن عبير تمثّل في حياتي ما يُطلق عليه البندولات، طاقة سلبية تعوق مساري وتتغذى على طاقتي لتبعدني عن هدفي وسعادتي، طاقة مدمرة لا يمكن الخروج منها دون خسائر، كثيراً ما شعرت بأنها تتمنى لو أمرض مثلها، لو نتبادل الأدوار، كانت تفكر في كل الأمور السلبية وتعيشها وتصدقها حتى تحقق ما تريد، فبقيتُ معلقاً في حياة خالية من كل أحلامي ورغباتي التي أريدها.

لم أصدق ليلة سفري أنني لن أرى ليلي قبل أن أرحل، كنتُ أفكر في تأليف حُجة للذهاب لمنزلها هي وهشام فقط لتوديعها، لأراها، حتى أهداني القدر رؤيتها تلك الليلة في المصعد الذي ركبناه معاً، كيف تكون غير مُقدّرة لي والقدر هو الذي يضعها في طريقي دوماً؟ يهديني إياها في أشد لحظات احتياجي لها؟ هي هديتي من القدر مهما باعدت بيننا الحياة، ولن أصدق غير هذا.

- سأسافر غداً.

قلت لا أجد كلمات، فأطرقت، ثم قالت بخفوت:

- رحلة سعيدة!

وتجاهلت النظر إليّ حتى وصلنا، لكن ما أن خرجنا حتى أمسكتُ يدها، أوقفها قبل أن تتجه لمنزلها.

- تمنيتُ لو.. أمضيت معك وقتاً أكبر.

اضطربت أنفاسها، وتوتر نبض ناعم في عنقها، لكنها لم تسحب يدها مني.

- لم يعد هذا ممكناً يا سليم.

همستُ بصوت ذائب، فقلتُ بياس:

- لماذا؟ ولو فقط كصديقين!

التفتت نحوي بغضب يرجف جسدها:

- صديقان؟! يضحكان صباحاً في حوض السباحة ويتعانقان ليلاً في غرفة البيانو! أو ربما في

شقتك! أهذه الصداقة التي تقصدها!

بُهِت وجهي، وابتلعتُ قلبي لأقول بأنفاس ثقيلة:

- لا يا ليلي، لم أكن لأفعل بك ذلك.. يبدو أنني أخطأت في حساباتي كالعادة.

وتركت يدها أكبر مشاعري كالعادة لأبقى مُخلصًا، ملعُونًا بصمت.

- أنت جبان يا سليم!

هتقت بي والدموع تخنق صوتها، وهرعتُ لمنزلها، وقفتُ أنظر لبابها أكره نفسي.. أكره كل

لحظة كنتُ فيها مثاليًا.. مزيفًا! جبانًا!

عدتُ لشقتي وظللتُ أمام الباب لا أفكر إلا في الوصول إليها.. لا يمكن أن أسافر وأتركها هكذا!

يجب أن أراها ونتحدث في كل شيء.. أخبرها بكل ما عانيتُه بعيدًا عنها، أن أضمرها إليّ ولو مرة

واحدة، مهما كان الثمن.

ثم سمعت صوت بابها يُفتح من جديد، وعرفت أنها آتية لي.. أنها تُلبي أميَّتي الوحيدة..

فتحت باب منزلي بسرعة ووجدتها أمامي.. اختطفتها بين ذراعي لا يهمني شيء، لم يعد هناك

شيء مهم سوى هذه اللحظة، سوى تسكين هذا الألم.

- ليلي.. ليلي! أكاد أجنُّ بك يا ليلي! لا تدرين بعذابي.. لا تدرين!

شهمتُ باكية وتعلقت بي أكثر، هنا بين ذراعيها كوني كله هنا.. أريد أن أحيأ وأموت هنا.

ليلي

في الأيام الأولى لعودة أبي للمنزل تكررت زيارات أخويّ وأسرّتيهما، ثم عادت الزيارات تقلُّ بالتدريج، فلم يبق معه سواي كالعادة، لكن ليس قبل أن يؤكد لي وليد أنه لن يسمح لي أبداً بأن أستولي على منزل والدته.

بدا أبي مختلفاً بعض الشيء بعد تعبه الأخير، بات يُظهر ارتياحه على الأقل حين يراني، ويبتسم لسلمي أكثر من مرة في اليوم، حتى إنني كنتُ أتركهما معاً مرة تلو الأخرى، وأخرج لأشتري طلبات البيت دون أن أقلق أن يضيق بها.

وما أن غادرت المنزل يوماً وأغلقت الباب ورأني، حتى وجدت باب شقة سليم يُفتح وهو يظهر منه ويتجه نحوي كأنه ينتظرني، ارتبكتُ حتى إنني كدتُ أتوجه للسلام مباشرةً، لكنه استوقفني بلهجة مُلحة، يريد فرض هديته علي!

- خذها وانسيني كما تشائين!

تركها في يدي وعاد لمنزله دون كلمة أخرى، وقفتُ مكاني أنظر للعبة بصمت والدموع تتجمّع في عيني.

عدتُ لغرفتي والعبة بيدي لا أستطيع التفكير في شيء، حتى فتحتها والورقة المطوية أسفل السوارين تصدمني بضربة غير متوقعة، تناولتها بأصابع مرتعشة:

«أنا مُنحك، ولا أستطيع التفكير بأي شيء، أمنيّتي الوحيدة هي أن أدفن وجهي في حضنك، وأشعر بيدك تمسح على رأسي، وأظل هكذا مدى الحياة». فرانز كافكا.

أرتعش كُلي، تسمّرت مكاني مذهولة التفكير والمشاعر، حتى دخلت سلمى ورأت اللعبة بيدي وسألّنتي:

- ماما! ألم تخرجي؟ وما هذه؟

لملمت شتات روعي الممزقة، أخفي الورقة بجانبني، وأنظر لوجهها البريء الناعم، هي التي تشبه الملائكة لا أنا. قلتُ:

- إنها هدية.. أحضرتها لك.. ولي.

جذبتها من يدي وقفزت بسعادة:

- وكأننا توأمتان!

لبست سوارها والابتسامة تملأ وجهها، وأصرّت أن ألبس سواري أيضاً، أحضرت هاتفها وتحمّست لأخذ صور متعددة ليدينا متجاورتين بالسوار، ولنا معاً بضحكات وعيون متشابهة. سليم

كان محقاً، فلم تبتهج سلمى لشيء هكذا من وقت طويل.. أتراه يفهمها دون عناء كما يفهمني؟

تأكلت الأيام واقترب موعد سفره، ورغم تجاهلي التام له وصديّ لكل محاولاته بالحديث منذ أن

أجبرني على أخذ هديته، إلا أنني ارتعبت من فكرة غيابه الوشيك، شعور ما يمنحه لي وجوده قريباً في الشقة المجاورة، ربما أمان زائف أو بقايا أو هام، لكنه يجعلني أتوقف عن تناول مضادات الاكتئاب.

وربما هذا ما جعلني في النهاية أبقى الأيام الأخيرة في إجازته في منزل أبي، ألمحه هنا أو هناك أو لا أراه إطلاقاً، فقط يكفيني أنه هنا، أو هذا ما ظننته حتى اعترفت لنفسي بأن كل يوم يقربه من سفره يلتهم جزءاً مني.. يفتطعه من روحي.. ولا يترك لي سوى ثقل مخيف.

أجبرت على مواجهة خطأي طوال السنوات الماضية والاعتراف بالحقيقة، لا يمكنني الاستمرار مع هشام وخيال رجل آخر يسكنني بهذا الشكل.

التهمة التي أصررتُ على إنكارها عشر سنوات تجلّت أمامي بوضوح، وكُشِفَتْ لي، على كُرّه مني، خطأ اختياري وتشبّثي بحياة أتمسك بها فقط كي لا أُتهم بالفشل، عمى اختياري نلجأ له هرباً من مواجهة مؤلمة مع النفس.

التقيته في يومه الأخير عند المصعد، سليم! تجاوب معه قلبي كالمعتاد رغم إرادتي، بدا مُنهكاً، سعيداً ومثألاً لرؤيتي، تحدثنا، أمسك يدي، ثارت مشاعري..

«أمنيته الوحيدة أن أدفن وجهي في حضنك»..

توسوس لي كلمات رسالته الأخيرة، وأنفضها بقوة.. لا يمكن.. لن يحدث! أنا امرأة متزوجة ولستُ خائنة!

ترك يدي، اختنقت الدموع في قلبي، فهتفت به:

- أنت جبان يا سليم!

وهرعت أدخل منزل أبي، أغلقت الباب، واستندت إليه وأنفاسي ودموعي تخنق صدري، حتى سمعت صوت إغلاق باب منزله، فتججّر شيء داخلي وفتحت الباب مجدداً بسرعة، واتجهت لشفته أقف أمام بابها مرتجفةً، متوترة الأنفاس، لا أدري أطرقة وأفتح باباً لا أعرف ماذا يخبئ لي أم أترجع؟ أغامر مرة أخرى بالاحترق أم أعود لحياتي وأستمر في دوري! في أخذ مضادات الاكتئاب التي تجعلني باردة هانئة أتقبل كل شيء دون حسرة كبيرة، أو وجع مميت!

أمرر الأيام كأنها عمر لأخرى، لامرأة غيري، لا يخصني، لا يهمني إلا أن يمر بأقل قدر ممكن من الألم.. المهم أن يمر دون أن يعرف أحد أنها فاشلة في كل شيء، وأولهم عجزها عن التخلص من حب رجل أفتنعه بأنه شمسها وهوؤها، ثم رحل.

فتح سليم الباب قبل أن أطرقة، فتحه وشدني إليه، ذبّت في حضنه مباشرة دون كلام.. دون تبرير، وضمّني بقوة حتى شعرتُ بأنني سأنكسر.. رغبتُ أن أنكسر وأتلاشى هنا على صدره الصلب؛ لأسكنه وأعذبه وأطارد أحلامه.. كما فعل بي لسنوات..

«ليلي.. ليلي! أكاد أجنُّ بكِ يا ليلي! لا تدرين بعداي.. لا تدرين!»

لم أكن بحاجة لأكثر من هذه الجملة لأنهار.. وينهار معي تماسك عشر سنوات بعيدًا عنه.

سليم

أحيانًا تختار ألا تُبصر..

تلك اللحظة التي تمتزج فيها عيناك مع شعاع الشمس؛ يأسرك ضوءها وسطوعها، فيغمرك العمى الأبيض..

في قمة افتتانك واقترابك تهتز الرؤية ويزوغ البصر! حينها تدرك أن ترك المسافات، وإفلات قلبك، هو ما يمنحك البصيرة.

تصاعد صوت كابتن الطائرة في مكبرات الصوت المنتشرة؛ للتبنيه على ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط، وتسارعت بالمثل نبضات قلبي، أجهل ما سأواجهه وأخاف منه، العودة التي وعدتُ ليلي بها تأخرت كثيرًا.. ليته فقط لا يكون فات أو أنها كذلك!

لا أنسى لحظة آخر لقاء لي معها في شقتي بعدما انهارت كل محاولتنا ليعيش كل منا بعيدًا عن الآخر، وانتهت مقاومتنا وأنا أضمتها إلى صدري.

رفعت وجهها الدامع تمسك بوجهي بين يديها وتقول:

- يكفي هذا يا سليم! يكفي ما أضعته من عمرك وعمري، أترى تلك الخطوط»، ومررت أناملها

فوق جبينني وحول عيني، تتقلت لمساتها على وجهي وهي تتابع:

- كل خط منها يحكي لي عذابك، يحمل عذابي وعذابك، أترى!

قلتُ بصوت يرتعش ندمًا ووجعًا:

- إنها خطوط العمر الذي عشته بعيدًا عنك.. كل خط بألف عمر.

- إذن يكفي هذا يا سليم يكفي!

بكتُ فأعدتها لحضني بقوة وكأني بتُّ عاجزًا عن انتزاعها مني، نعم يكفي، عشر سنوات أكرر

عن ذنبي، عشر سنوات ولا يزال حبها فيّ؛ خلاصي وكفارتي.

- أنت لا تعرف ما عانيته طوال هذه السنوات يا سليم، لا تعرف ما أشعر به وأنا أكتشف أنني

أقبل فجأة كل ما كنتُ أرفضه من قبل، ولا أملك الرفض لقيود كثيرة حول قلبي وعنقي، أفكر كل

يوم لو بقيت أنت معي.. لو لم تتركني.. لو تزوجنا في السر أو حتى في العلن، وتحدينا كل شيء،

لكن أعود وأرى أنك مازلت معها، وأن مجرد هذا التمني لا مكان له.

- وأنت مازلت زوجة لهشام!

قلتها بغضب احتلني بغته، وجعلها تبعد عني وتتنظر لي بعداء.. بانتقام.

- نعم مازلت متزوجة من هشام بسببك! لأجل أن تتألم في كل لحظة تفكر بي فيها! وترى ما

فعلته بي وبك!

هتفتُ بألم عمره سنوات:

- وكان يمكنك أن تختاري ألا تتزوجيه! أن تنتظري أي فرصة تجمعنا لو كان حبك صادقًا كما تدعين! لكنك قطعت كل الفرص بزواجك! وضيعت كل شيء!

- أنت رفضتني يا سليم! ذبحتني! أتيت لك ليلة زفافي مرتدية أجمل أثوابي! أنتظر منك كلمة.. وعد! لكنك لم تمنحني شيئًا! احتقرت نفسي لسنوات على تصرفي تلك الليلة وذهابي إليك! لكنني وقتها لم أفكر إلا بالانتقام منك! أتظن أنني لم أفكر في كل هذا ألف مرة! أتظن أنني لم أندم لتسرعي في هذا الزواج! لكن.. لكن أنت سلمى.. وتغير كل شيء.. رغمًا عني تغير كل شيء.  
مزقتني رؤية اضطرابها ووجعها، أمسكت وجهها بحنان:

- أعرف.. أعرف! أنا آسف! لم أندم على شيء في حياتي قدر تركك تضيعين مني تلك الليلة، لكن دعينا من كل ما مضى، فقد دفعنا ثمنه بما يكفي، أنا متعب يا ليلي.. لا أريد أن أرحل، أريد أن أبقى هنا معك، الحياة تتسرب مني وأنا بعيد عنك، لكن يجب أن أعود لهم مرة أخيرة..  
- لا!

- يجب أن أحسم كل شيء، سأعود قريبًا يا ليلي، سأعود.  
- لا! ستركني ككل مرة يا سليم! ستركني!  
- وأنت أيضًا تكونين قد أنهيت كل شيء مع هشام، تقتلني كل لحظة أعلم فيها أنك له.. وليس لي!

دفعت يدي عنها باكية غاضبة لنتجه للباب، لكنني لم أتحمّل أن تغادر وتختفي هكذا.. أن أحرم منها مجددًا ولا أعرف إلى متى!  
ليلي!

لحقت بها بسرعة دون تفكير وجذبتها نحوي لا أريد التفكير في أي شيء.. ولا أي حسابات أو منطق.. ربما سأندم لاحقًا ويحاصرني الشعور بالذنب، فليحاصرني أو يقتلني لا يهم! كم مرة تعذبت بلا جدوى.. بلا سبب حقيقي، فليكن عذابي لسبب حقيقي لمرة واحدة، لن أضيعها مني كالمرة الماضية، وقررت أن تكون لي الليلة، أن تبقى معي الليلة.. عذاب سنوات اتخذ القرار.  
أريد أن أحتفظ بها في ذاكرة جسدي وقلبي معًا، أحتفظ برائحتها، بلمسها، بصورة خصلات شعرها المتهدلة على وجهها الوضاء، بتماوج الفيروز في عينيها مع كل لمسة بيننا، أن أحتفظ بتلك الحياة التي تبثها في جسدي وأسترجعها كل ليلة وهي بعيدة عني.  
لكنها قاومتني، لم تسمح لي، همست بذعر:

- سلمى!  
لم أفهم.. لم أكن مستعدًا لفهم أي شيء يُبعدني عنها، لكنها استمرت في محاولة التخلص مني بهلع مرعدة:

- سلمى تبحت عني! سلمى!

بذلت جهداً مضنياً لأستعيد وعيي وأسمع نداء من الخارج: «مامي.. مامي!».  
هرعت للباب دون أن تنظر لي، لكنني كنت أعرف أنها تبكي بصمت وترتجف.  
- سأعود يا ليلي، سأعود لأجلك.

قلتُ وصوتي يتهدج حرارةً، فتوقفت أمام الباب منكسة الرأس، وما أن لمست كتفها حتى شهقت  
باكية وأسرعت تفتحه لتهرع لابنتها، وأكتوي أنا بعدائين؛ عذاب مشاعري وعذاب الندم.

\* \* \*

اخترت اسمها من قائمة الاتصالات وتوقف أصبغى كالعادة قبل أن يضغط الاتصال كالمائة مرة  
الماضية منذ ليلة أمس، لم أتوقف عن المحاولة حتى أفلعت الطائرة المتجهة لأمريكا، تاركاً خلفي  
قلبي ومشاعري وبعض روعي معها.

بالتدريج أدركت فداحة ما كدتُ أقدم عليه، وأدركت الحالة التي ستكون فيها ليلي الآن، فكرتُ  
كثيراً في الاتصال بها، في الحديث معها وإخبارها أنه ليس خطأها، وأني أتحمّل كل الذنب، وأؤكد  
لها أنني لن أتركها طويلاً مرة أخرى، وسأعود لها في أقرب وقت.

لكن احترتُ، لا أدري إن كان من الصواب أن أتصل بها الآن، أم أتركها حتى تلملم شتاتها،  
أعرف أنها ستحمّل نفسها المسؤولية، ستكره نفسها وتكرهني بعد أن كدت أجرفها لفعل تحنقر نفسها  
عليه للأبد ويحطم صورتها الذاتية، صورتها التي حاربت طوال حياتها لتبنيها وتحفظ بها، وجئت  
أنا في نوبة يأس وحرمان لأهدم كل ذلك.

أغمضت عيني أحاول الاسترخاء ونفت توتري، لم يعد بيدي شيء الآن على الأقل حتى أصل  
وأحاول الاتصال بها مجدداً، اعترفت لنفسى أنني لستُ نادماً جداً على ليلة أمس، وكيف أندم على  
الإحساس بحبها لي ورغبتها فيّ، لم أندم إلا للأذى النفسى الذى سببته لها، لكن تلك الدقائق معها  
حملت من الحياة أكثر مما عشت عمري كله.

عندما وصلت وفتحت الهاتف مجدداً وجدت اتصالات عديدة من خالى، ورسائل صوتية يخبرني  
فيها بنقل عبير للمستشفى، بعد حدوث مضاعفات للعملية الأخيرة التي تم فيها استئصال جزء من  
المعدة، ليفاجأوا بحالة انسداد في الأمعاء الآن.

هرعت للمستشفى الذى تتابع فيه علاجها، وغمرني شعور جديد بالذنب في حقها لم أفكر به من  
قبل؛ استقبلني مع روائح المرض والمطهرات في الغرفة، وجدت خالى وزوجته معها، وأمي  
مرهقة في المنزل، جلستُ بجانب سرير عبير النائمة بتأثير المسكنات، أرمق بأسى وجهها الذابل  
وملامحها التي بدلها المرض، بقيت جوارها حتى غفوت مكاني وتعب وإرهاق السفر يتمكنان مني.

عندما فتحت عيني لأعدل من جلستي المتعبة، وجدتتها مستيقظة تنظر لي، لم يكن خالى وزوجته  
معنا الآن، فسألتهما باهتمام أميل عليها:

- كيف تشعرين الآن؟ ماذا يؤلمك؟

نظرت لعيني لثوان، وهمست:

- أنت.. أنت ما يؤلمني يا سليم.

ابتلعت غصة مفاجئة وقلتُ:

- ليتني أستطيع محو كل ألمك يا عبير، ليت بيدي أي شيء.

قالت بتعب:

- أعرف أنك بقيت معي ولم تتركني، ظللت معي في كل أوقات مرضي وكنت خير رفيق لي، وربما زوج.. أحياناً كنت زوجاً لا بأس به.

صمتت تتنفس بثقل وتابعتُ:

- كنتَ عندها.. كنتَ معها، أليس كذلك؟

سألتُ مراوغةً بخفوت:

- مَنْ تقصدين؟

- تلك التي تضيء هذا النور في عينيك، فتاة البيانو، رأيت صورتها على هاتفك منذ سنوات، هي.. أليس كذلك؟ كنت أعرف أنك تراها قبل أن تأتي إلى هنا، ما أن تدخل من باب المنزل؛ كنت أعرف من ملامح وجهك ونور عينيك أنك رأيتها، قابلتها، فتشجعت لفكرة السفر وأصررتُ عليه لأخذك منها، لتظل لي وحدي.

زفرتُ بحزن وقلتُ:

- أيمكن أن تتوقفي عن هذا الكلام؟ أريدك أن ترتاحي ولا ترهقي نفسك.

تنهدتُ بتعب مجدداً وغمغمتُ:

- لو كان بك ما بي! لكنه ليس بك ولا يمكن أن تفهم إحساسي، لا أعرف أيهما كان الأفضل لي.. أن أمرض وتبقى معي، أم أن أظل بصحتي.. أعيش حياتي.. بعيداً عنك، ليتني ما أحببتك يا سليم.. ليتك ما أصبحتَ حلم طفولتي ومراهقتي وشبابي.. وما تعلقتُ بوجودك في حياتي لهذا الحد.. ليتني.

أثقلني ألمها، وبدا أن وعيها ينسحب بالتدريج، فقلتُ بسرعة وحرارة:

- لكنني أحببتك فعلاً يا عبير، وبقيت معك لأنني أحبك، يجب أن تُصدّقني ذلك.

رمقتني بنظرة ساخرة بعينين حزينتين نصف مغمضتين، ولم تردّ علي.

لم تخرج عبير هذه المرة من المستشفى، بقيتُ لشهور طويلة فيها، يُجرون لها عمليات عاجلة، تقضي فترة نقاهة.. تسوء حالتها من جديد وتحدث مضاعفات جديدة.

طوال تلك الأشهر اتصلت بليلي مرات عديدة ولم يأتي منها أي رد، تجاهلت كل اتصالاتي، ولم أستطع التواصل معها أبداً.

عشرة أشهر بالضبط قبل أن تدخل عبير في غيبوبة طويلة، لم نعرف في البداية أنها ستطول

لهذا الحد دون أن تستفيق منها مرة واحدة، وتنازعتني مشاعري، أريد أن أطمئن على ليلي، أن أسافر لها لأعرف أخبارها، لأحقق وعدي بالعودة لها، ولا يمكنني ترك عبير وخالي في تلك اللحظات، حتى لو استمرت شهورًا طويلة، لا أستطيع ترك خالي هكذا وحده وكأني كنت أنتظر فرصة خلاصي بفارغ الصبر.

والمفزع أكثر أنني فعلاً كنت أنتظر الخلاص، حتى لو لم أعترف لنفسي بذلك، حتى لو كنتُ أخبرت عبير في كل فرصة قبل غيوبتها أنني أحبها وأكدت لها ذلك مليون مرة، أعرف أنها لا تصدقني، أعرف أنها تعي الفرق بين التعاطف والشفقة اللذين أشعر بهما نحوها وبين الحب الحقيقي.. حب الرجل لامرأته، لكن هذا كل ما كان بيدي لأقدمه لها، حاولت.. أكثر من عشرة أعوام وأنا أحاول وأقاوم لأخلص لها، لكنها كانت ترى الحقيقة داخلي، تراها وتتمسك بي أكثر رغم كل شيء.

قاربت غيوبتها على العام دون أن تستفيق مرة واحدة، ولا أعرف شيئاً عن ليلي، رفضت أي اتصال معي بعد لقائنا الأخير في شقتي، خفت.. وتساءلت كثيراً هل كرهتني من وقتها لدرجة أنها لم تعد تريد مني شيئاً؟ لم تعد تنتظرني؟ هل اكتشفت أنني مجرد وهم؟ أفزعتها نسختي الدنيئة التي كاد تجرّها للخيانة فنسيت أمري، وبات هشام هو حبها الحقيقي؟ كان لا بد لي من الحيرة والتساؤل والتوقف عن المحاولة، وهي تجاهلتي لهذا الحد وطوال هذا الوقت.

ثم تحوّل ذات يوم موت عبير الإكلينيكي إلى موت تام، وأوقف الأطباء الأجهزة المتصلة بها والأسف على وجوههم، والصدمة على وجوهنا، كنا في حالة من عدم التصديق، لا يصدّق خالي وزوجته أن حياة ابنتهما انتهت ولن تعود لهما مرة أخرى ولو لسنوات إضافية في العلاج والمعاناة.

وأنا لم أصدّق أن تلك الحياة المليئة بالألم والوجع انتهت واختفت تماماً من حياتي، هل كنتُ زوجاً طيباً معها؟ هل خففت عنها كما يجب؟ أم إنني زدت آلامها كما رددت لي دوماً؟! هل كانت كفارة لذنوب قديم أم ذنب جديد في عنقي؟!

«ارتاحت يا حبيبتي! ارتاحت من العذاب!»

وحدها أمي التي رددت تلك الجملة وهي تبكي، فضربتنا جميعاً موجة من الوجوم.

دخلت في صراع نفسي جديد بموت عبير، ما بين الخزي من شعوري بالخلاص، وما بين تأنيب النفس على كل الحب الذي لم أستطع منحه لها. لا يوجد أصعب من أن تتمنى موت إنسان ولو بينك وبين نفسك، ولو أنكرت الفكرة، مجرد إنكارها يعني أنها موجودة بداخلك!

لكن لا، أنا لم أرغب أبداً في أن تموت، كل ما رغبت فيه أن أتحرر، أن تمنحني صلّ الخلاص؛ لأبتعد واستعيد سيطرتي على حياتي، أن أظل بجانبها كقريب وصديق مخلص وليس كزوج، ربما حينها لتغير مسار حياتها هي أيضاً.

لكنها لم تفعل، ولا أدري مَنْ ألوم، أنا أم عبير أم القدر؟ هل كان لديّ أي خيار آخر ولم أنتبه له؟ هل كان يمكنني أن أمضي تلك السنوات من حياتي بشكل مختلف بالرغم من مرض عبير والتزامي بالوقوف معها هي وخالي؟ أكان لديّ أي سيناريو آخر يحمل لي بعض السعادة؟ أم كان عليّ أن أمرّ بكل هذه التعاسة لأُكفّر عن ذنبي مع رياض؟ ليتني استطعت أن أحبها، حينها كان سيختلف كل شيء.

«حتى لو لم يأتِ الخلاص، فإنني أريد أن أكون جديرًا به في كل لحظة»، تطاردني جملة عزيزي كافكا، فهل بتُّ جديرًا بالخلاص الآن وانتهت معاناتي؟ كثير من الحيرة والأسئلة وتأنيب الضمير، لكن كل هذا انتهى الآن، أنظر له من أعلى فتكتمل تفاصيل اللوحة التي حرت بها، ولم أفهمها، إلا حينما جفّت آخر ضربة فرشاة بها. لحظة التنوير التي أخبرتُ ليلي عنها، وكنت أظنني مررت بها حتى اكتشفتُ أنها لا تأتي فجأة، وأني يجب أن أعبر درجات من الظلام حتى تكتمل دائرة النور، وتشرق البصيرة.

بقيت فترة مع خالي الذي بدا أنه لن يستمر طويلًا في أمريكا بعد موت ابنته، مرّت الأيام وهدأ الحزن، حتى لم أعد أستطيع مقاومة فكرة العودة لمصر وتفقّد أحوال ليلي بنفسي وبأي ثمن، لتحقيق وعدي بالعودة مهما تأخر الوقت، وفي محاولة أخيرة بحثت عن صفحة هشام على فيسبوك، فليلي لم تُنشئ أي صفحة بسبب خوفها الدائم من ربطها بأمرها، وجدتُ له صفحة قديمة مهجورة منذ عدة أعوام لكنني وجدت في الأصدقاء عنده صفحته الجديدة و صفحة سلمى، خطفت نظري فورًا بصورتها هي وليلي، جميلتان، تضحكان للكاميرا بعينين متشابهتين وترفعان يديهما المزينة بالسوارين المتماثلين، ابتسمتُ رغماً عني وأنا أتأمل الصورة، شعرت بأنني جزء من كليهما معها، وتصاعد الوجع العذب بي، أغمضتُ عيني وإحساسي بها في لقائنا الأخير يغمرنني؛ أفقدك يا ليلي.. أفقدك كثيرًا!

ضغطتُ على الصورة لأدخل صفحة سلمى مباشرة أنوي البحث في صورها هي وليلي وكأنني أكتشف كنزًا، حتى طالعتني المنشورات الحديثة على الصفحة.. كلمات معدودة مكررة على خلفية سوداء جعلت قلبي يتوقف من شدة الألم.. البقاء لله حادث أليم.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

في مَنْ؟؟ في مَنْ؟!

حادث أليم؟! ماذا حدث لماذا لا يتكلم أحد بوضوح!

لم أجد أي تفاصيل، أكاد أموت مكاني والصدمة تشلُّ أطرافني، ولا أجد سوى مزيد من العزاء على صفحتها و صفحة هشام وكل الاحتمالات تقودني للجنون!

تحركت لا أرى أمامي أختطف جواز سفري، أدسُ في حقيبتي بضعة أشياء بالية وأهرع للمطار؛ لأحجز تذكرة ذهاب لأول طائرة متجهة لمصر، كفاني انتظارًا لإشارات لن تأتي، سأبدأ الحياة التي أريد، وأنتزع خلاصي بنفسني.

ليلي

بعد مواجهتي مع هشام تلك الليلة الكارثية بحضور سلمى، ذهبت لمنزل أبي دون تأجيل، منذ تلك الليلة عرفت أنني لستُ الأم المثالية التي ظننتها، بعدما رأت ابنتي كذبي، وأنكرتُ أمامها وأمام أبيها ما رأته بعينيها. غمرني الخزي، وهربت منها داخل جلدي، فكيف تحب أمًا كاذبة؟ كيف تحترمها؟

هشام كان محققًا بشأنها، يجب أن تقوى وحدها، دوني.. حتى لا أكون غيمة جديدة في حياتها. ورغم اتفاقنا على الطلاق إلا أن هشام لم يُطلقني إلا بعد شهر، عذّبتني تمسّكه بي، استعداده لسماعي وتصديقي بعد أن هدأ، أعرف أنني أحببته بطريقة ما، لوقت ما، لكنه في كل الأحوال لم يعد أن يكون أكثر من مُسكّن لوجع عميق داخلي، وجرح لم أستطع تجاوزه، مُسكّن لحياة تمنيتها وفقدتها، فحاولت خداع نفسي بحياتي معه، وجُبني هو ما منعني من الاعتراف، من المواجهة حتى الآن.

وفي الليلة السابقة على إتمام الطلاق كما حددنا أخيرًا، أتى لمنزل أبي يريد التحدث معي لآخر مرة، تمنيت لو أهرب بأي شكل لا أتحمّل ألمه ورجاءه، لكنني كنتُ مدينة له بمزيد من العذاب تكفيرًا لذنبي، فخرجت أقابله مفضلةً ألا يكون لقاؤنا أمام عيني أخي وزوجته، بقينا في سيارته بعد أن دار بها بصمت فترة من الوقت ندرك أن لا مكان يحتوي خصوصية الحديث الذي سيدور بيننا، فتوقف أمام حديقة قرب منزل أبي.

- لا أتصور حياتي من دونك.

نزل السوّط الأول على قلبي، واختنق صوتي، بدا مرهقًا حزينًا، لكن كان يجب ألا أهرب هذه المرة:

- هشام.. نحن مختلفان في كل شيء، منذ الشهور الأولى لزواجنا وهوة كبيرة بيننا، لم يملأها حبك أو علاقتنا ولا حتى سلمى، لا أستطيع خداعك وخداع نفسي أكثر من ذلك، يكفي ما ضاع من عمرنا في تمثيل أن كل شيء جيد وبخير، أنت تعرف أننا لسنا بخير، ومنذ وقت طويل ليس الآن فقط، أنت تستحق من تحبك أكثر، من تدعمك في حلمك أكثر، أنا لم أعد أقدر، لم أعد أستطيع التظاهر أن كل شيء بخير أكثر من ذلك.

قال والغضب على وجهه:

- تقصدين أنني فاشل! ستتركييني لأنني فاشل في نظرك!

هممتُ بأن أنكر فورًا وأغدق عليه كلمات لطيفة موسية، لكنني أمسكت لساني ومشاعري وقلت

بهدوء:

- حتى لو نجحت في التمثيل، هذا ليس ما أريد أن تكون حياتي عليه، هذا آخر ما تمنيت أن

يكون عليه زوجي وشريك حياتي، لذا لا يمكن أن نستمر يا هشام، صدقتي لا يمكن.

أطرق بحزن وبعد جهد واضح قال لي:

- أريد أن أعرف شيئاً واحداً..

قال بنبرة ثقيلة عرفت منها ما يقصده، وتخبطت ضربات قلبي بسرعة وألم.

- للمرة الأخيرة.. هل كنت في شقة سليم؟

مرّت في ذهني عشرات الأفكار والأجوبة والتبريرات، أعرف أنه لا بد سيسأل هذا السؤال ولا

بد من إجابته، أعددتُ كلاماً كثيراً سأخبره به، ما سأحكيه في حكايتي مع سليم وما سأخفيه، حتى

وجدتُ نفسي أقول جامدة الملامح:

- لا، لم يحدث.

كاذبة، جبانة، منافقة!

وتركته أعود أراجي بخطوات سريعة كأنني أسابق أفكاري، أهرب من دائرة الضوء المسلّطة

عليّ، أحاول إبقائها فوق رأسي وأصدق أنني ملاك! فتصطادني بسهولة وتسمرنني في بؤرة

نورها، أرى القيود التي طالما طوّقتني لأصدق أنني ملاك! لا يخطئ! لا يفشل! لا يخون!

تبددت الغمامة وصفعتني الحقيقة وأنا أكذب وأخاف وأخون! صفعني جُبنِي وكذبي وعدم قدرتي

على مصارحة هشام بكل شيء! رأيتُ حقيقة ضعفي وأنا عاجزة عن هزيمة حب يقتلني، وخيانة

أحلم بها كل ليلة.

وأبصرتُ.. أننا نُمُتحن دوماً في أكبر مخاوفنا، وأنا نهاجم بشدة ما نخشى الوقوع فيه.

عندما تم الطلاق أخيراً، انزويت أكثر مع سلمى في غرفتي ببيت أبي، اتصالات سوزي لا

تتوقف، وتلميحات وسخافات وليد وزوجته كذلك لا تتوقف، وأبي يصر على عدم التدخل، متعللاً

بأن هذا منزل أمّ ولديه في الأصل.

- صوتك مهموم، أحدث شيء؟

سألتني سوزي ذات يوم عبر الهاتف، وكانت، لدهشتي، تحرص على الاتصال بي والاطمئنان

عليّ بشكل منتظم منذ بداية مشاكلتي مع هشام.

- لا، كل شيء على ما يرام.

- كُفّي عن العناد! تعالي بيت أمك مفتوح لك، واتركي لهم هذا البيت يشبعون به! بيتي كبير

وواسع، وربما حتى لن أراك فيه إلا صدفة، إذا كانت رؤيتي هي المشكلة عندك!

شعرتُ بالإحراج وقلت:

- كلا بالطبع لم أقصد، شكراً لعرضك لكن...

- إنه ليس عرضاً! أنا لست شركة سمسرة! أنا أمك.. وأريدك أن تأتي لتعيشي معي، منذ سنوات

وأنا بعيدة عن الفن الذي تكرهينه، فلم تستمرين في مقاطعتي؟

- أنا.. ليست مقاطعة بالطبع لكن...

- فكري في مصلحة ابنتك وراحتها، هل يعجبك الوضع الذي أنتما فيه؟ أولاد توفيق حقودون وقلبهم أسود، لن يقبلوك أبداً بينهم، اتركهم واشتري راحتك وراحة ابنتك.

لَفَنِي الشُرود طويلاً بعد تلك المكالمة، وبعد نزاع عنيف داخلي، قمتُ لأجهز حقائبي أنا وسلمى.  
سألنتي سلمى متذمرة:

- هل سنرحل من هنا؟

توقفت عن وضع الملابس ونظرت لها بجديّة:

- نعم يا سلمى، لا مكان لنا هنا، لا يجب أن نعتمد على أحد، سأعود للعمل ونحصل على منزل خاص بنا، لكن حتى ذلك الوقت لن نبقي هنا.

- لكني أحب هذا البيت، وأحبّ جدي!

هزرت رأسي بأسى، لا تكوني مثلي يا سلمى، لا تتعلقي، لا تحبي، لا تنتظري شيئاً من مخلوق، كلهم سيخذلونك يا حبيبتي، كلهم سيتخلون عنك، كوني قوية يا سلمى.

- كوني قوية يا حبيبتني.

همستُ لوجهها الحزين وواصلت جمع حاجياتنا.

قال أبي في الردهة وحقائبي أمام الباب يفاجئه ما يحدث:

- أين ستذهبين؟

تخاذل لساني لحظة قبل أن أتذكر شجارنا الأخير عندما أخبرته بمضايقة وليد وزوجته لي، فكل ما فعله أن أكد لي ككل مرة أن هذا منزل ولديه وعليّ ألا أنسى هذا!

قلتُ بتحدّ:

- لأمي.

- لماذا! ماذا حدث؟! كم ستبقين هناك؟!!

- لا لم يحدث شيء أبداً، أنا فقط لن أعود هنا أبداً!

ومشيت ممسكةً بيد سلمى أفتح الباب.

ضمّ سلمى والحزن على وجهه:

- أنا لم أرغب أبداً أن تتركي منزلي يا ابنتي.

- ولم ترغب أبداً أن أبقى فيه كذلك.

قلتها وعيناوي تدمعان رغماً عني قبل أن أحتّ خطاي في الرحيل.

وذهبت لأجد سوزي تستقبلني بحفاوة وتحتضنني:

- أخيراً تكرميت على أمك وأنتيت، المنزل كله نور ما أن دخلته، ليس لك غيري يا ليلي، لا أحد

يحبك مثلي، ولا حتى أبوك الذي باعنا منذ زمن.

لم تعلم سوزي كم ضغطت كلماتها جُرحي، لم أستطع الإنكار، وتحركتُ للداخل مع سلمى نرى  
غرفنا الفاخرة التي جهّزتها لنا، ولا تتوقف عن الكلام، ورأسي حائر، يدور، لا أعرف إن كان  
وجودي معها صوابًا أم خطأ، ولم أجد جوابًا.

وجدتُ هذه المرة العمل الذي طالما تُقْتُ إليه دون قيد أو خوف من أبي وأسرته، مساعد  
«شيف» في مطعم كبير، انتعشتُ روحي وتجددتُ خلايا جسدي، كأنها بداية جديدة لكل شيء،  
عرفتُ أن الحياة تُدخلني دائرتها من جديد، وأن عليّ أن أمحو سؤال لماذا تظلمني الحياة في كل  
فصولها؛ بأخذ قرار حاسم يملأ نفسي.

لم أكن إلا ضحية نفسي وخياراتها، لو لم أتزوج هشام انتقامًا من سليم، لو واجهتُ أبي منذ  
سنوات، لو خلقتُ عالمي الخاص بدلًا من البحث عن مكان لي في عوالم الآخرين! ربما حينها  
لاختلف كل شيء.

ورغم ذلك كنتُ كلما أضع رأسي على وسادتي يتردد الهمس في الظلام.. أنا حزينة.. حزينة..  
فلا أنكر.. وأبكي، أبكي كثيرًا حتى يكتفي قلبي، أريد أن أجدني، أن أكون أنا، أفعل ما أريد دون  
انتظار مباركة شخص آخر، ولو أبي.

ها قد خاطرت وواجهت الحقيقة، فأخطر المواجهات تلك التي تكون مع النفس، التي تعترف  
فيها أنك من كتبت بيدك كل فصل في قصتك الصغيرة البائسة، تلعب أدوارًا اخترتها بنفسك، ولم  
يفرضها عليك أحد.

«أين ذهبت؟ احكي لي يا ليلي، ليس لك غيري».

انضمت لي سوزي في غرفتي ليلة مقابلة المديرية، ونظرتُ لها عاجزةً عن البوح، ثم غمغمتُ  
متهربةً:

- اعتدتُ أنك بعيدة، أن ليس لي أم أحكي لها أي شيء، أنا لم أكد أعرفك تقريبًا إلا هذا العام.

عقدت ذراعيها أمام صدرها وقالت:

- وها أنا قريبة الآن، اعتادي على ذلك إذن!

- سوزي أنا لا أنكر كرمك وطيبتك معنا لكن...

- لكنني تركتك وأنت طفلة، أعرف، وأعرف أنني أخطأت، أرى ذلك الآن، بل منذ سنوات،

لكنني وقتها لم أفكر إلا في بناء مستقبلي وتحقيق حلمي، حتى لو حلم رخيص بالنسبة لك، فقد كان  
كل حياتي، أنا لا أريد منك أن تحبيني كما تحب أي بنت أمها، أعرف أن الأوان لذلك قد فات، لكن  
كل ما أريده أن أبقى معك السنوات الباقية لي، حتى لو لم أعوضك عما مضى، فلا شيء يُعوّض  
هجر الأم لطفلتها، لكن يجب أن تفهمي أنني معك الآن، بجانبك، وسأفعل أي شيء لحمايتك أنت  
وابنتك.

ساد الصمت للحظات، وكل منا تتمالك مشاعرها دون أن تواجه نظرات الأخرى، حتى عادت

سوزي لتقول ورجفة خفيفة في صوتها:

- المهم بالنسبة لموضوع هشام أريد أن أتأكد من موقفك النهائي؛ لأنه لا يتوقف عن الإلحاح عليّ لإقناعك بالعودة له حتى بعد الطلاق.

- لن أعود يا سوزي.. لن أعود! متى سيتوقف عن ملاحظته لي وإصراره عليّ أن نعيد نفس المسرحية كأى مسرحية فاشلة مثلّ فيها! هشام لم يتحمّل يوماً أي مسؤولية تخصني أو تخص ابنته، أفكر أحياناً في أنه لم يحبني حقاً، لم يحب سوى تمثيل دور الزوج الناجح السعيد في حياته، كما يمثل أنه ممثل ناجح ومشهور! تعبتُ من الحياة معه، من التمثيل أنني سعيدة وراضية، وأنا لا أشعر بأنه زوج أصلاً وهو مستمر في أخذ مصروفه من والده، كيف أشعر بالأمان معه دون أي أمل في مستقبل حقيقي؟ كيف أبقى على حبه وهو يتركني أفعل كل شيء وحدي، أتحمّل مسؤولية كل شيء وحدي، البيت والبنت وحتى ما يخصه هو، فإذا كنت به أو من دونه وحدي، فلماذا أعود إذن؟!

هزّت سوزي رأسها متفهمةً، ثم قالت:

- شعرت بذلك من رؤيتي لحياتكما، هشام شاب لطيف وأحبه، ويحبك بالمناسبة، فعلاً يحبك، لكن الزواج شيء آخر كما قلتِ، ولا أظنه دوراً يصلح له.  
وتابعت:

- بأي حال فلنركز في موضوع سلمى؛ لأنه الأهم الآن، البنت، تاليا، حالتها سيئة، وقد لا تتجو، يجب أن تسافري أنتِ وسلمى في أقرب وقت، وتتركا البلد كلها، بدلاً من أن يأخذوها في «الأحداث».

حدقتُ بها بذعر:

- لكنك كنتِ تقولين إن هذا الطبيب صديقك يطمئنك ويقول إنها تتحسن!  
تنهّدت:

- من يدري، لكن يجب أن نحتاط لجميع الاحتمالات.

وضعتُ يدي على فمي مبهوتةً، لا أستوعب أن ابنتي يمكن أن تتهم في جريمة قتل!  
أشعلت سوزي سيجارة:

- أنا أريد مقابلة المديرية فقط لأعرف هل سيشهدون ضد سلمى أم لا، دعك من موضوع الفصل، هذا آخر ما يهمني، لكن يجب أن نذهب للمدرسة ونعرف نيّتهم لنتصرف.

- وماذا يمكن أن نفعل لو كانوا سيشهدون ضدها؟!

- كما قلتُ لك، نساfer كنا، أنتِ وسلمى أولاً حتى أرتب كل شيء يخصني هنا وألحق بكما، لديّ ثروة لا بأس بها، سنتفعنا في هذه المصيبة، كنتُ عند المحامي منذ أيام، وكتبت هذا المنزل باسمك، سنغلقه ونتركه كما هو تحسباً لو عدنا يوماً هنا بعد أن يهدأ الموضوع.

كنتُ مصدومة من ترتيبها لكل شيء، وأنا بالكاد أستوعب أنني يجب أن أهرب مع ابنتي خارج البلاد!

- لا يمكن أن يحدث هذا.. لا بد أن الفتاة ستكون بخير.  
هزّت كتفيها:

- يا رب، لكن يجب أن نستعد لجميع الاحتمالات كما قلت، الأمر ليس بسيطاً، إنه قتل خطأ على أقل تقدير، وربما نستطيع إقناع المدرسة بالشهادة لصالح سلمى؛ كي لا تكبر الفضيحة في المدرسة أكثر وتسوء سمعتها، ربما، لكن علينا أن نبعد البنت أولاً حتى نتأكد مما سنفعله.

- لا أصدق ما يحدث! لا أصدق.

ربتت سوزي على يدي وتضغطها تطمئنني قائلةً:

- لا تخافي، سيمرُّ كل هذا، سيمرُّ.

نظرت لها ودموع مفاجئة تغمر عيني:

- أحقاً سيمرُّ؟

أخذتني سوزي في حضنها تربت عليّ وتواسيني بتمتة رقيقة حانية، وكأنها تهدد طفلة صغيرة لتتوقف عن البكاء، وعرفتُ من خفوت نبرتها وارتعاشها، إن دموعها هزمتها أيضاً.

\* \* \*

في الصباح فوجئت بقدم سلمى لي قبل أن أنهض من فراشي.

- أنتِ مستيقظة يا مامي؟

أتاني صوتها على باب الغرفة، فقمّت أزيح الستائر الرمادية لتسبح الغرفة في نور الصباح، والتفتُ لها مبتسمة:

- نعم يا حبيبتي، تعالي.

جلسنا على طرف الفراش، قبل أن تقول بتردد:

- لا أريد سوار الملائكة؛ لأنه ضاق عليّ.

وأخرجته من جيبتها، مسحتُ شعرها الناعم بحنان:

- احتفظي به حتى لو لم تلبسيه، أنا أيضاً لا ألبسه، وربما العام القادم سيكون مناسباً لك،

الأشكال والأحجام تتغير حبيبتي، المهم هو ما يبقى داخلنا، في قلوبنا.

هزّت رأسها تعجبها الفكرة، قبل أن تسأل:

- هل الملائكة نُحفاء يا مامي؟

أمسكتُ وجه صغيرتي بين يديّ، وشعاع الشمس الصافي يحيطها بهالة بريئة شفافة:

- الملائكة من نور يا سلمى.. وأنتِ نور حياتي.

ابتسمتُ بخجل والفرحة في عينيها، فاحتضنتُها طويلاً، أدرك أنني حرمت نفسي من هذا

الحضن وحرمتها منه بسبب أوهام، تركتها تسيطر عليّ وتُفرِّق بيننا.

- أتريدين إخباري بشيء قبل لقاء المديرية يا سلمى؟

نظرت لي بعينين مليئتين بالكلام، لكنها هزّت رأسها نفيًا وسارعت لغرفتها.

\* \* \*

ونحن نغادر المدرسة رأيت مجموعة من الفتيات أخذن في الضحك والتغامز، رmqتهن سلمى بنظرة جامدة كأنها اعتادت هذا الأمر، وتذكرت كلام أحد مدرسيها في بداية العام عن تعرُّض سلمى للتمتر من زميلاتها بسبب حجمها، لكنني حينها تحدثت معها، وأكدت لها كم أحبها وكم هي جميلة، وظننت أن الأمر انتهى، أتكون حادثة تاليا لها علاقة بهذا الأمر؟ يجب أن أتحدث معها بجدية وحزم أكبر عندما نعود للمنزل، لقد ظننت أنني فعلت كل شيء كي لا تتعرض مثلي للاستهزاء الذي طعنني قديمًا من مجموعة فتيات مشابهة، لكن يبدو أنني أخطأت في تقدير خطورة الأمر.

رَنّ هاتف سوزي ونحن في طريق العودة من لقاء المديرية، وعندما نظرت لي همست: «سنبداً في تجهيز إجراءات السفر».

جاهدت كي لا تتداخل الصور أمام عيني في الطريق.. أسيصبح هذا حقيقيًا؟!

مررتُ أصابعي حول عنقي أزيح ربطة الحجاب قليلاً.

- اسمعي يجب أن نفعل ما قلته لكِ أمس، لا يمكن أن تبقى سلمى في المنزل بعد الآن، أين أبوها؟ لماذا لا يتصرف ويفعل أي شيء!

- تعرفين هشام، يرعبه تحمُّل أي مسؤولية، إنه لم يكذب يسأل عنها منذ أن وقعت تلك الكارثة.

- لا يهم، أنا رتبت كل شيء.

رمقتها بطرف عيني، سوزي التي احتقرتها طوال عمري هي من تحميني أنا وابنتي الآن! هل قسوتُ عليها أكثر مما تستحق؟ أظننتُ نفسي ملاكًا لا يخطئ فلم أقبل الغفران حتى بعد أن تغيَّرت وأظهرت حبها لي؟

لكنني سامحتها، منذ وقت طويل ودون أن أشعر، ربما فقط لم أخبرها حتى الآن أنني سامحتها.

هتقت سلمى فجأة:

- أنا لا أريد العيش معك! أنا لا أحبك!

الفتت سوزي تُفرِّغ انفعالها على سلمى، وتماسكها الظاهري يذوب سريعًا.

راقبتهما بحزن..

أهو ذنبي يا سلمى؟ أتعيشين كل ما عانيت منه لأنني أسأت اختيار الحياة لكِ ولي؟ زرع فيّ

سليم هذا الإيمان وتركني أواجه نوبات كفري وحدي.

أردتُك أن تكوني قوية دون أن تمرري بكل الألم والخذلان الذي عشته، ولو معي أنا أمك! ولم أع

أنني بعد أن بالغتُ في حمايتك، بالغتُ في الابتعاد لتصيري أقوى وأفضل مني، فأربكتك معي، ولم أدرك إلا متأخرًا أننا نقوى بمن نحبهم، وهم يقوون بنا.

سلمى.. سوزي.. وسليم! أمامي مواجهات وأحاديث كثيرة مع كل منهم، فمزال أمامي الكثير لأصلحه معهم.. ومع نفسي.

علا صوت سلمى وسوزي مجددًا، تدخلتُ بينهما أكثر من مرة، لكن فشلتُ في تهدئة أي منهما، أدت رأسي الشارد بينهما وبين الطريق عدة مرات حتى وجدتني المرة الأخيرة في الحارة الخطأ! مرأى الشاحنة الكبيرة القادمة نحونا بسرعة انتزع صراخنا المذعور، انحرفتُ بقوة ومالت السيارة بشكل مرعب، لكن هذا لم يمنع الاصطدام الكبير وضجيج ارتطام المعدن.. طارت كل الأفكار من رأسي، إلا هذيان أخير..

يجب أن أنقذ سلمى.. أن أخبر سوزي أنني سامحتها.. أن أكلّم سليم! يجب أن ننجو.. لا يمكن أن نموت هكذا، هذا ليس الموت الجميل الذي خططتُ له.. كنتُ على وشك إصلاح كل شيء! لكن...  
أيمكن أن يقفز ختام قصتنا فجأة قبل أن نحيا فصولها؟

ماذا لو..؟

«ماذا لو التقينا في حياة أخرى.. لو أخذنا هُدنة من حياتنا الحالية وتخيلنا وجودنا في ظروف مختلفة؟ أيمن حينها أن نتجنب ألم القلب وحيرة الاختيار؟ ألنا في الخيال، حقاً، حياة؟ إذن فلنتخيل!»

\* \* \*

خرجتُ للشرفة أقف في الهواء المنعش وثقل يجثم فوق صدري، بالرغم من الحفل الجميل الذي أقمنه أمس احتفالاً بعيد ميلاد سلمى التاسع، فالهوة بيني وبين هشام تتسع، يهرب كلانا من مواجهة هذه الحقيقة أو كما يقولون في الغرب: «نتجاهل الفيل الذي في الغرفة».

أعرف أنه خطأي من البداية، قبلتُ بالزواج من أول راغب مُلِح في طلبه، هشام ابن أحد أصدقاء أبي، طبيب مشهور، وهشام كذلك دكتور أطفال، لكنني لم أكتشف ولعه بالتمثيل إلا بعد الزواج. كنت أظن أن الزواج هو ما يلزمني لأحظى أخيراً بأسرة دافئة متماسكة وبيت يخصني لا أعيش فيه كالضيوف، خطوة أرضي بها أبي؛ لعلني أرى نظرة الفخر في عينيه، قرار متهور دفعت ثمنه عشر سنوات من عمري، ألا يكفي؟

انتبهت من شرودي لنغمة مميزة تأتي من هاتف قريب، نظرت تلقائياً لشرفة الشقة المجاورة المهجورة منذ سنوات، فالتقت نظراتي بعيني رجل أربعيني وسيم، طويل، يمسك هاتفه، كان على وشك أن يجيبه قبل أن تلتقي نظراتنا، ويستغرق كلانا لثوانٍ في سؤال شفاف: هل التقينا من قبل؟ - آسف، لم أقصد إزعاجك.

قال بابتسامة خفيفة، فقلت أخفي شعوري بالإحراج:

- لا أبداً، لم أكن أعرف أن هناك من سكن الشقة أخيراً، فهي مغلقة منذ سنوات.  
- صحيح للأسف، لسوء حظي سافرت أمريكا بعد شرائي لها بوقت قصير، أعمل وأعيش هناك، ورغم تجهيزي لكل ركن في هذا المنزل لم أعش فيه تقريباً، ومع ذلك أشعر.. وكأنني رأيتك من قبل.

- ربما، فموسيقى نغمتك مألوفة جداً، كأنني سمعتها في زمن بعيد ولم تتكرر إلا الآن.  
- كنت أعزف هنا أحياناً بالفعل! يبدو أننا كنا في الجوار في فترة ما، لكن لم نلتق لسوء الحظ.  
خفتت الابتسامة على وجهي ودفء جارف في عينيه يربكني، ويثير توتري، ألفة غريبة تسري في قلبي تجاهه، كنت على وشك التراجع ومغادرة الشرفة عندما أضاف فجأة والحزن يرسى على ملامحه:

- سأضطر للعودة قريباً، إنها إجازة قصيرة، فأسرتي تنتظرني هناك.

- آه.. لديك أطفال؟

ضحك قليلاً:

- لا، لست متزوجاً، أقصد أمي وخالي، إنه عمل عائلي أديره من هناك بعد انشغال خالي برعاية ابنته، مرض مناعي نادر جعله يلفُّ العالم أملاً في علاجها، فأصبح كل شيء على كاهلي منذ سنوات، ولم أنتبه أن العمر سرقني إلا الآن.. في إجازتي هنا.  
ابتسمتُ والحنان يملؤني تجاهه، وربما بعض الأسي كأنني أفهم ما يعنيه:  
- ربنا يشفيها، وإجازة سعيدة لك، أنا.. يجب أن أعود للداخل، عن إذنك.  
اهتزتُ بسمة لم تكتمل على شفتيه، وشعرت بعينيه تتابعني حتى اختفيت من أمامه.

\* \* \*

عدتُ لمنزلي شبه متأكدة أنني لن أرى هذا الرجل مرة أخرى، ورتبتُ أفكاري لمواجهة هشام برغبتني في الانفصال، الأمر الذي لم يكن سهلاً على الإطلاق، كان يراني ملاكاً، فكيف أتخلى عنه؟

لكن الحب الحقيقي ليس قييداً، ولا يمكن أن يستمرَّ بالابتزاز العاطفي لأحد الأطراف، الحب حرية، حرية إن فقدتها في العلاقة فلم تعد حباً بأي شكل.  
لم تكن المواجهة سهلة، وبصعوبة جنَّبتُ سلمى مشاهدتها، لكن رفض هشام ترك المنزل كنوع من العناد أو العقاب جعلني أعود لمنزل أبي مع سلمى.  
وكان توقيتتي مرتب من القدر، ففي نفس اليوم انزلق أبي في حمام المنزل وفقد وعيه، وبعد لحظات دعر ثقيلة وصلت الإسعاف لأخذه، تركت سلمى مع مدبرة المنزل وتفكيرني مشوش، حينها ظهر جاري مجدداً، كان يبدو عائداً للتو من الخارج، فأوقف سيارته خلف سيارة الإسعاف وهرع نحونا.

- تفضلي سأوصلك.

هذا ما استوعبته من كلامه وأسئلته التي لم أردَّ عليها، ركبت معه وأنا أسأل نفسي لماذا خفت من مرافقة أبي في عربة الإسعاف؟ هل خفتُ أن أراه يموت؟ هل سيموت؟ سيموت دون أن يعرف كم أحبه وكم أنا غاضبة منه؟  
بعدها طمأننا الأطباء واستقر أبي في إحدى غرف المستشفى، بكيت بجوار فراشه، أكلمه وألومه وأعاتبه وأخبره بكل شيء، وقبل أن أعرف إن كان سمعني أم لا أتى بقية إخوتي للتشاجر معي، فتركت الغرفة وغادرتهم.

فاجأني وجود جارنا وانتظاره، ولسخرية القدر شعرت بأنه أقرب شخص لي الآن.

«تمام يا رياض، سأكلمك لاحقاً، سلام».

أنهى مكالمته بسرعة حين رأني أتجه نحوه، وقال:

- لا تقلقي، سيكون بخير، تكلمت مع الأطباء وحالته مستقرة.

أومأت برأسي وقلت:

- شكرًا.. شكرًا لكل شيء.

منحني ابتسامة دافئة لامست قلبي، وأدركت أنه أكثر وسامةً مما أذكر، لكن لم تكن وسامته وحدها سبب انجذابي له، بل هالة من الدفء والرصانة تحيط به وتطمئن كل من يقترب منه.  
- لا داعي للشكر، أنا سعيد لأنني رأيتك قبل أن أسافر، فطيارتي بعد بضع ساعات، لكنني سأعود قريبًا.. قريبًا جدًا.

ألجم لساني إحباط مؤلم، وتابع يقول:

- يمكنني إعادتك للمنزل إن أردت.

حركت رأسي نافية:

- لا، سأبقى مع أبي، شكرًا مجددًا يا...

واستغربت أنني لا أعرف اسمه.

مدّ يده مصافحًا وابتسامته تتسع:

- سليم.. وأنت ليلي، صحيح؟

وضعت يدي في يده أغمغم:

- صحيح.

- أهلاً بك يا ليلي.

- أهلاً بك يا سليم.

أيمكن لشخص أن يضم عمرك كله في مصافحة عادية.. في كفّ يده؟

\* \* \*

ضجّت القاعة بأصوات التصفيق والهتاف مع عرض شارة النهاية لآخر أفلام هشام، لكنه لم يكن دورًا ثانويًا هذه المرة، بل مشاركة في البطولة مع نجم كبير، ليحقق أخيرًا خطوة حقيقية في حلمه.

حرصت على الحضور مع سلمى كما أصرّ، فبالرغم من طلاقنا كنتُ أول من أخبره عن فيلمه الجديد، يريد أن يشاركني سعادته ونجاحه، أعرف أنه ما زال يأمل أن نعود يومًا، في البداية كنت متأكدة من أنني لن أعود له مهما حدث، بعدما نلتُ أخيرًا حرّيتي وبدأت مشروعِي الخاص الذي حلمت به، لكن موقف أبي من الطلاق هو الأمر الوحيد الذي يجعلني مترددة، فقد قاطعني كليًا منذ طلاقي، واعتبرني امرأة غير مسؤولة مثل أمي التي لم يكن بيني وبينها أي صلة، ولم يبقَ لي منها سوى جرح عميق مدفون داخلي لا سبيل لمداواته.

رفض أبي رؤيتي كلما زرته، واستمرّت نظراتي معلقة بشرفة جاري الغامض الذي التقيته العام الماضي، لكنه لم يظهر مجددًا.

أقبل هشام نحوي أنا وسلمى في نهاية العرض الخاص للفيلم، وعرض عليّ بحماس والبهجة تملؤه:

- ما رأيك لو أخذتك الآن لعمي توفيق أخبره عن فيلمي الجديد وصالحتكما؟ أنا واثق بأن قلبه سيلين مع هذا الخبر الرائع.

ترددت:

- لكن أخشى أن يظن خطأ أنني... أننا...

ضحك:

- سنعود لبعضنا؟ من يدري! ههههه! لا تقزعي هكذا! وهل الزواج بهشام الشريف نجم النجوم مزعج لهذا الحد؟ ردي أنت يا لولو على مامي!

قلت بنظرة تحذيرية:

- لا تُدخِل سلمى في هذا المزاح.

- تمام تمام أعرف القواعد! هيا لأوصلك ونجرب.. لن نخسر شيئاً.

ركبت معه أنا وسلمى في سيارته الجديدة هدية والده، وأخذت سلمى تتحدث عنه بانبهار وإعجاب طوال الطريق وهو لا يتوقف عن المزاح معها، ولا عن مغازلتني بطريقة مرحة غير مزعجة، حتى وجدت نفسي أراجع موقفي منه مجدداً والجو الأسري الحميمي يغمرنا ويداعب أمانى القديمة.

تقدمني هشام باتجاه المصعد ممسكاً بيد سلمى، وأنا وراءهما بخطوات أخشى ما ينتظرني مع أبي، كنت مشغولة البال حتى لفت نظري الشخص الذي يغادر المصعد متجهاً للخارج، فتوقفتُ مكاني ونظرانا تلتقي بتلقائية، فتوقف هو أيضاً، سليم!

أشرق وجهه لرؤيتي، فضربتني موجة ارتباك هائلة وأنا أحرق به.

- مامي!

انتزعني سلمى من صدمتي، وأجبرت نفسي على التحرك نحوها وهشام منشغل بتلقي مكالمات التهاني دون أن ينتبه لما أصابني.

تابعني سليم بنظرته وأنا أنضمُّ لهما، وتعبير مختلف يمر على وجهه، صدمة.. حزن.. أو مزيج من الاثنين، حتى اختفيتُ في المصعد، وضربات قلبي تدق بقوة وتضخ التساؤلات بداخلي.

لماذا لا تتوقف الحياة عن اختبارنا؟ عن امتحاننا في أصعب اللحظات؟ أيمن أن تدخر لي فرصة أخرى؟ حياة جديدة لم أفكر في وجودها؟ أم إن عليّ الحفاظ على الفرصة التي في يدي ولا أهدرها كي لا أخسر كل شيء؟

لكن هذا القلب الذي يخفق الآن كما لم يخفق من قبل هل سيهدأ ويفتتح بالمنطق أم يصير على خوض تجربته حتى لو قادته للمعاناة؟

وقفت مع هشام وسلمى أمام منزل أبي ننتظر الدخول كأسرة سعيدة، ونظراتي تشرذد للشقة المجاورة، لبيتتي قابلت سليم منذ سنوات طويلة، فلربما حينها اختلف كل شيء.. لما وقعت في حيرة الاختيار، ولا عانى القلب!

أم إنه لا مفر من المكتوب، ويجب أن يمر كل منا بمعاناته حتى يعثر على الحياة التي يريدونها؟ فحينها سندرك أن حياتنا التي عشناها بالدماء والروح أقوى وأكمل من أي خيال.

ليلي

هل نمتَ يوماً على صدر الموت؟ تمنيتَ أن يغمركَ ذلك السواد المريح؟  
الأسود هادئ.. ساكن.. فسيح.. يضم بحنان كل ألامك..  
فقط غفوة قصيرة، ثم نعود لحياتنا الصاخبة الملونة..  
لكن ماذا لو لم نرغب في مرة أن نعود؟  
«سلمى.. أين سلمى؟»

تردد السؤال داخلي ولساني ثقيل، حلقي جاف، والرؤية ضبابية، مشوشة كذهني، أين أنا؟ وأين سلمى.. سوزي؟ أين سوزي؟ وماذا حدث؟ في ذاكرتي أحداث متداخلة لا أذكر منها شيئاً، وأسئلة كثيرة لا يُخرجها صوتي!  
«بخير يا ليلي.. أنت بخير وسلمى بخير.. استيقظي يا حبيبتي وانظري لي.. افتحي عينيك.. أرجوك».

هل أهذي أم هذا جزء من حلم؟ سليم هنا؟  
حاولت جاهدة رفع جفني، ليصطدم مزيج من البياض المؤلم بعيني، كأنني كنت في ظلام دامس لوقت طويل.  
ليلي!

رأيت وجه سليم وعينيهِ الدامعتين، عينيهِ الحبيبتين، ولم أكن أتق فيما أرى، فرددت:  
- سلمى.. أريد سلمى!

- سترينها.. سترينها.. المهم أنك أفقت.. عدت لنا يا ليلي.. أه يا ليلي!  
كان كل شيء مشوشاً ماعدا الدفاع الذي يملأ قلبي كلما نطق اسمي.. دفء بث السكينة في روحي.. وجعلني أفكر أنني ربما.. ربما لا أتوهم وجوده.  
تكررت مرات صحوي وتكررت معها أسئلتني، لا أملك القوة الكافية لأنهض وأتحرك، فكانوا يطمئنوني أن سلمى بخير رغم أنها ليست حولي مثلهم، أما سوزي فيُطرق أبي بحزن ويغمغم كلمات رفضت استيعابها.. سوزي ماتت؟ لا لا يمكن لامرأة تفيض بالحيوية مثلها أن تموت ببساطة هكذا ولو في حادث! أنا لم أتكلم معها.. لم أخبرها بكل ما أردته! لا يمكن أن تموت وتترك حديثنا غير منته، مُعلق في الهواء! لا يمكن أن أكون سبب موتها!

ازدادت الهواجس وازداد الفزع، ما أدراني أن سلمى بخير؟ فأين هي؟  
كان سليم الذي واجه نوبة غضبي وإصراري على رؤية سلمى هذه المرة، فحاول تهدئتي، وفي النهاية طلب من التمريض كرسياً متحرّكاً بعجلات ليأخذوني لغرفة سلمى رغم عدم اقتناع الطبيب.  
سرنا في رواق المستشفى بصمت، وأصابعي تضغط بشدة على يدي المقعد، سليم بجواري

وعيناه على وجهي، والممرضة تدفع المقعد حتى توقفنا أمام باب الغرفة المنشود، وشعرت بانسحاب الدماء من رأسي.

- إنها بخير.. سلمى بخير.

قال سليم مؤكداً وهو ينحني عليّ، حدّقت بعينيّه أتمسك بالأمل، وأستمدُّ قبساً من قوته لأتقدم للدخل.

نهضت واقفة عندما اقتربت من الفراش، أتقدم خطوة وأقف لحظات في صمت، أرمق الجسد الهزيل المسجى فوق سرير المستشفى، صمت لا يقطعه سوى أزيز الأجهزة التي تحمل مؤشرات جسد سلمى المستقرة.

تداخلت الصور والذكريات بعنف في رأسي، زكمت أنفي رائحة الأسفلت.. ووخزني الألم.. الألم الأسوأ من الموت..

انهمرت دموعي ودوار الذكريات لا يتركني:

- أنا السبب! أنا السبب في كل شيء! أنا من فعلت هذا بها.. وبسوزي!

أسرع إليّ وعذابي ينتقل لصوته مكرراً:

- ليست غلطتك، ليس غلطتك.. إنه قضاء وقدر، والحمد لله أنك بخير وسلمى بخير.. فقط تحتاج لبعض الوقت، لكن الأطباء كلهم يؤكدون ثمائلها للشفاء في أقرب وقت.

أجهشتُ في البكاء أستند إليه وقواي تتسرب مني.

\* \* \*

مرّ الزمن بطيئاً حتى تحسنتُ، وبدأتُ في استيعاب كل شيء، فازداد الحزن في نفسي، حدثني سليم طويلاً، لم يهزم اكتئابي سوى حديثه، أخبرني بكل شيء، حكى لي عن طفولته وأسرته، وعن رياض، عن العذاب الذي مرّقه طوال السنوات الماضية.

أخبرني بأن حبه لي هو ما جعله يصمد ويتماسك أيام الظلام الطويلة التي غبت فيها، وأنه أدرك أن سبب شقائه مع عبير ليس مرضها ولا أيّاً من الصعاب التي مرّاً بها، لكنه غياب الحب.

وكان لكل منا حياة محددة مع أشخاص معينين، وفي وقت محدد، نكون فيها الشخص الصحيح.. شخص أفضل مما نظن في أنفسنا، وعلينا فقط ألا نتوقف عن محاولة إيجاد تلك الحياة مهما طال الوقت.

أخبرني كيف هرع لمصر فور علمه بالحادث، ومن وقتها لم يتركني هو ولا أبي الذي يملأ الندم وجهه، ويغمرنني بعطف لم أعرفه فيه من قبل، أما هشام فكان يأتي باستمرار، وعرفتُ أنه تشاجر مع سليم رافضاً وجوده أكثر من مرة قبل أن أستعيد وعيي، حتى واجهني وأنا في نصف اتزان، وهو يبدو وكأن كلمة واحدة قادرة على تحطيمه.

- ماذا يفعل سليم هنا! وماذا بينكما! لن أصدقك هذه المرة إن كذبت! سأعرف أنك تخدعيني منذ

البداية إن لم تخبريني الحقيقة الآن!

كنا أمام غرفة سلمى، نظراتي معلقة بوجهها النائم، ولم أستطع سوى قول الحقيقة.  
- كنتُ.. أحبه، قبل أن أعرفك، وعندما اكتشفتُ أنه متزوج ذهب كل منا في طريق، طوال فترة زواجي منك لم أكد أتحدث معه سوى مرات معدودة، كانت حياتي معك ستنتهي في كل الأحوال يا هشام، وأنت تعرف ذلك.

خبط كفيّ بعصبية وقال وهو يتحرك بتوتر في المكان:

- وانتَهز الفرصة الآن طبعًا ليعود إليك! وأنتِ ستعودين له! ستوافقين!

- لا أستطيع التفكير في شيء الآن سوى سلمى.. لا يهمني سواها.

نقل نظره بيني وبينها، ثم سألني بصوت مختنق:

- لماذا لم تحييني يا ليلي؟ لأنك بقيت تحببته طوال هذه السنوات! حتى وأنتِ معي!

نظرتُ لعينيه بحزن:

- لقد أحببتك يا هشام.

- لكن ليس كما تحببته! كنت أشعر طوال الوقت أن هناك حاجزًا بيني وبين قلبك.. بين روحك!

أتظنين أنه من السهل عليّ أن أراه هنا الآن يطوف حولك بهذا الشكل! أنتِ وابنتي! ابنتي! هي

ابنتي، صحيح؟!

واجهته أقول بكل الوجد الذي بداخلي:

- بالرغم من كل شيء ومهما حدث بيننا يا هشام، أنت تعرفني.. قلبك يعرفني، أظن أنني يمكن

أن أفعل بك هذا؟ أن أخدعك بهذا الشكل؟ أنا؟ ليلي؟

- إذن لماذا كنتِ في شقته؟ لقد ذهبتِ إليه لا تحاولي خداعي!

أجبتُ بغم مرتعش:

- تحدثنا فقط.. لم يحدث شيء.. صدقني لم يحدث شيء.

ملأت الدموع عينيه وحدق بي طويلًا كأنه يحاول التصديق، قبل أن يغمغم:

- أنا أكرهك.. أكرهك يا ليلي!

انسابت دموعي أمام الألم الذي يرجف صوته، كنت أعرف هذه الكراهية التي تتبع من حب

كبير، حب يبقى كطعنة في القلب. ابتعد مغادرًا، وكان هذا آخر ما سمعته منه لوقت طويل.

استمرّ في زيارته لسلمى دون أن يتبادل معي كلمة، ورجوت سليم ألا يحتكّ به مجددًا، وعندما

بدأت سلمى في العودة لوعيتها لم أكد أشعر به هو أو سليم، حتى استقرت حالة صغيرتي، وأضاءت

شمعة جديدة في روعي تزيح عتمة ملأنتني طويلًا في غيابها.

انتبهت بعد فترة لتوقف هشام عن المجيء، فأخبرني والداه في إحدى زيارتهما لسلمى أنه سافر

إلى دبي مع فريق تصوير مسلسل جديد سيشارك فيه، ولكن أجمل ما أخبراني به أن تاليا صديقة

سلمى أصبحت بخير، وغادرت المستشفى، فقبل أهلها أخيراً الصلح، فشعرت وكأننا مُنحنا جميعاً بداية جديدة، حتى سوزي بدايتها الجديدة غرست في قلبي وستظل فيه للأبد.

### بعد بضع سنوات

- سلمى.. أين أنت!
- حالاً حالاً! آتية يا سليم.
- وقفت أمامه بضحكتها الصافية فلان وجهه.
- لم يكن هذا العدد الذي اتقنا عليه.
- لم أقصد والله.. دعوتُ أصدقائي المقربين، فعرفت باقي المجموعة.. لم أستطع إحراجهم؛ إنها أول سنة لي في الكلية ولا أريدهم أن يكرهوني.
- أنتِ تبتزيني عاطفياً! أعرف هذا لكن ينجح معي كل مرة لأقول لك لا يمكن لأحد أن يكرهك! وهذا المهرجان في البيت خير دليل.
- ضحكت بانتصار طفولي، فابتسم:
- لا تعرفين كم تشبهين ليلي الآن حين قابلتُها أول مرة، كانت أكبر منك بقليل.
- تأبطت ذراعه يغادران الشرفة وهي تقول:
- يدهشني دوماً أنكما التقيتما منذ ذلك الوقت! ثم حدث كل هذا بعدها.
- إنها الحياة يا سلمى، لا تعطيك ما تشتهين في الوقت الذي تريدينه أنتِ.. بل في الميعاد الذي تختاره هي.. غمرنا أخيراً تعاطف القدر الذي أهدى كلاً منا للآخر من البداية، وصالحنا بعد خصام طويل.

قلتُ وحديثهما يصل لي:

- كنت أعرف! أرسلك لتؤنّبها فتراوغي بكلامها وتشغلك عن مصائبها!
- أعترف أنني فاشل في تأنيب أيّ منكما!
- ضحكنا، قبل أن يرن هاتف سلمى باتصال فيديو من هشام، فنتبعد والابتسامة تملأ وجهها، كان هشام يواظب على الاتصال بها رغم زيارته المعدودة لمصر خلال السنوات الماضية، بدا زواحي من سليم القشة الأخيرة التي جعلته لا يعود مجدداً، وبعد إلحاح من والديه انتظم في الاتصال بسلمى، كان رقيق القلب بالرغم من كل شيء، تزوج عدة مرات، وظهر في عدد محدود من المسلسلات، وما زال يسعى وراء حلمه.
- اقتربت صغيرتي لي لي تتقافز تطالب بحلواها المفضلة قبل أن ينهيها أصدقاء أختها، فأعطيتها ما تريد ضاحكة، وسليم يراقبنا بمحبة وامتنان، قبل أن يحيط كتفي بذراعه ويميل علي:
- متى سينتهي هذا الحفل؟ اشتقت إليك! انشغلت عني طوال اليوم بالتجهيز له.
- وأنا أيضاً اشتقت إليك جداً، لكن تعرف أن سلمى تحب أن أصنع لها كل شيء في عيد ميلادها

بنفسي.

أوما مبتسماً، نقلت نظري بينه وبين فتاتي السعديتين، وقلت بسكينة تملأ قلبي:  
- لن أملّ من إخبارك كم أنا محظوظة بك، أنت شخص نادر في الحياة يا سليم.

رفع وجهي نحوه وقال:

- لا أكون هكذا إلا معك، وبسببك، ألم أخبرك أبداً أنك أفضل احتمال لي؟ في كل حياة وفي أي  
زمن ستظلين أنتِ طريقي الوحيد للسعادة.

ارتعشت بسمة صغيرة على شفتي، أرى انعكاس روحي في ضوء عينيه، ملت إليه أحتضنه  
وطاقة من الحب تطوقنا، تحوطنا بحياة رائعة، تمنحني كل ما تمنيته دون غيوم أو خداع للنفس.  
فقد نبصر متأخراً أحياناً، لكنه أفضل من ألا نبصر أبداً خيارنا الصحيح في الحياة.

\* \* \*

تمت